جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي
معهد العلوم الإسلامية
السنة ثانية حضارة

محاضرات مقياس:

الخلافة الأموية والعباسية

موجهة لطلبة السنة ثانية حضارة

أستاذ المقياس:
الدكتور الجباري عثماني

ثالثا — الخلافة الأموية

٤١ – ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٥٠ م

الخلفاء الأمويون :

السنوات الهجرية	الخلفاء	السنوات الميلادية
٤١ . .	معاوية بن أبي سفيان .	٦٦١
٦٠ . .	يزيد الأول	٦٨٠
٦٤ . .	معاوية الثانى . . .	٦٨٣
٦٤ . .	مروان بن الحكم . .	٦٨٣
٦٥ . .	عبد الملك بن مروان .	٦٨٥
٨٦ . .	الوليد بن عبد الملك .	٧٠٥
٩٦ . .	سليمان	٧١٥
٩٩ . .	عمر بن عبد العزيز .	٧١٧
١٠١ . .	يزيد الثانى	٧٢٠
١٠٥ . .	هشام	٧٢٤
١٢٥ . .	الوليد الثانى	٧٤٣
١٢٦ . .	يزيد الثالث	٧٤٤
١٢٦ . .	إبراهيم	٧٤٤
١٢٧ – ١٣٢ .	مروان الثانى . . .	٧٤٤ – ٧٥٠

١ — معاوية بن أبى سفيان

٤٠ ق هـ = ٦٦٠ — ٦٨٠ م

يرجع نسب معاوية بن أبى سفيان بن حرب مؤسس الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد فى مكة قبل البعثة بخمس سنوات ، وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند وله من العمر ثلاث وعشرون سنة[1] .

انتقال الخلافة إلى معاوية :

كان معاوية أطول الحكام المسلمين عهداً ، فقد قضى فى ولاية الشام نحو خمس وعشرين سنة تمكن أثناءها بسياسته ودهائه من أن يجتذب قلوب أهل الشام ويجعلهم طوع أمره ، وظل الشاميون مخلصين للأمويين حتى أواخر عهد بنى أمية .

لم يستقيم الأمر لمعاوية على أثر مقتل على بن أبى طالب مباشرة ، فقد ظل العراق يقاومه عدة شهور ، وبايع الحسن بن على ، ولكن الحسن خاف غدر أهل العراق ، كما أنه أحس بضعفه أمام جيوش معاوية ، فأظهر استعداده للنزول عن الخلافة لمعاوية حقناً لدماء المسلمين ، بعد أن تبين له أنه قد أصبح لا قبل له بمقاومة معاوية وجنده ، على أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا ، وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق فى الولايات الإسلامية كافة ، وقيل إن الحسن اشترط

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

على معاوية أن تكون الخلافة بعده للحسين . وفى اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤٩ هـ ، دخل معاوية الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، وأصبح معاوية خليفة المسلمين . وقد حرص معاوية منذ ولى الخلافة على مزج القبائل العربية التى وفدت إلى الشام بأهل تلك البلاد ، وبذلك استطاع أن يكون آمناً فى ملكه ، كما وجه اهتمامه إلى تقريب الرجال الأكفاء إليه وتقليدهم المناصب الكبرى فى الدولة العربية .

أشهر الولاة فى خلافة معاوية :

اشتهر عمال معاوية بالدهاء وكان ذلك من أبرز صفاته ، فلا غرو فى أن يختار ولاته من المتصفين بذلك . ومن الدهاة الذين استعان بهم معاوية فى الحكم ، عمرو بن العاص ، الذى ولاه مصر . ومن سيرة عمرو نتبين أنه من الرجال الذين أثروا فى الحوادث تأثيراً عظيماً ، ويبدو ذلك من سياسته فى التحكيم التى أودت بخلافة على ، ويكفيه فخراً بلاؤه فى الفتوح الإسلامية الكبرى وإصطلاحاته الهائلة فى مصر .

ويسترعى النظر كذلك فى عهد معاوية ، شخصية المغيرة بن شعبة والى معاوية على الكوفة سنة ٤١ هـ . وكان من الطائف من قبيلة ثقيف وله ماض حافل بالأعمال الجليلة فى خدمة الإسلام : فقد اشترك فى فتوح فارس ، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة ، وفى سنة ٢١ هـ ولاه عمر على الكوفة ، وفى الفتنة التى قامت فى خلافة عثمان بن عفان اعتزل الفريقين .

وفى عهد معاوية ظهر زياد بن أبيه . وكان والياً على فارس من قبل على ابن أبى طالب ، فلما قتل على اعتصم زياد بولايته ، فبعث معاوية إليه المغيرة ليستميله إلى جانبه ، وقد استطاع المغيرة أن يثنيه عن رأيه ، وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان . فسار إليه وسلمه مابقى عنده من أموال فارس ،

واستلحقه معاوية بن أبى سفيان فاعترف بإخوته كما اعترف أبوه من قبل ببنوته وشهد بذلك نفر من الناس ، وإن كان البعض ينكر صحة هذا النسب ومنهم عائشة أم المؤمنين . لهذا يقال له : زياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية ، وزياد بن أبيه لجهلهم اسم أبيه ، وبعضهم يلحقه بأبى سفيان . ومن الغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع مافى هذا الأمر من العار والخزى ، وإنما كان ذلك سياسة من معاوية . وقد امتاز زياد منذ نشأته بنشاطه وحزمه ، فأظهر كفاية فى العمل الذى أسند إليه فى الفتوح العربية كحاسب للغنائم مما جعل عمر بن الخطاب يثنى عليه ويتوقع له مستقبلا زهرا ، وولاه معاوية البصرة سنة ٤٥ هـ حيث خطب فيها خطبته البتراء المشهورة[1] . ولما توفى المغيرة بن شعبة ضم معاوية ولاية الكوفة إلى زياد .

تولية العهد ليزيد :

أعجب معاوية بما شاهده من نظام وراثة الملك عند القياصرة والرومان ، ففكر فى نقل هذا النظام إلى الدولة العربية بعد أن رأى أن العامل الأساسى الذى أدى إلى تفرق كلمة المسلمين إنما هو المنافسة على الحكم . فكر معاوية فى ذلك ، وما لبث أن هداه تفكيره إلى أن تلافى المنازعات على الخلافة لا يتم إلا بتولية ابنه يزيد ولاية العهد من بعده .

كانت هذه الخطوة التى خطاها معاوية طبيعية ، فقد تبين له مانجم من الويلات والفتن والشرور من نظام الخلافة المتبع عند وفاة كل خليفة ، فرأى أن يعهد بالأمر فى حياته لابنه ولا يترك الأمر لجماعة من المسلمين ، حتى لا يتفرقوا ولا ينقسموا ، ولكن كان يحسن ألا يختار ابنه ، كما فعل أبو بكر

---

(١) سميت بالبتراء لأنه لم يبدأها بالبسملة أو الدعاء .

الفتوح فى عهد معاوية :

يمتاز عهد معاوية لا بالتطور السياسى فحسب ، بل إن همة المسلمين اتجهت أيضاً إلى الفتح ، فقد اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد معاوية شرقاً وغرباً ، ففى الشرق قام ولاته على خراسان بفتح « هارات » و « خوارزم » ، كما استولوا على بعض بلاد الهند والسند ، بل وعبرا نهر جيحون وهاجموا بخارى[1] وسمرقند . وفى الغرب سار عقبة بن نافع من برقة واستولى على إفريقية[2] من الرومان . وأسلم على يديه كثير من البربر ، وقد عمل العرب على إدخالهم فى جيوشهم ، وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام ، وبنى عقبة على أثر انتصاره مدينة « القيروان » وأقام بها المسجد الجامع ، ولم يكتف عقبة بذلك بل سار سنة ٥٥ هـ حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ، ولم ترهبه هجمات الرومان على جيوشه عند تقدمه . ولم يلبث عقبة أن عزل وولى مكانه « أبو المهاجر » مولى مسلمة بن مخلد الذى ولاه معاوية مصر وإفريقية ، وبلغ أسطول الشام فى عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة فتح بها عدة جهات كجزيرة رودس وبعض الجزر اليونانية .

اتجه معاوية ناحية الشمال ، حيث الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها . ولذلك رتب معاوية أمر غزوها برا وبحرا عن طريق الأسطول فى البحر ، كما رتب ما عرف باسم الشواتى والصوائف . وفى سنة ٤٧ هـ سار فضالة الأنصارى على رأس جيش كبير ثم أمده بقوة على رأسها يزيد بن معاوية ، وحاصر الجيش القسطنطينية نفسها سنة ٤٨ هـ وهو الحصار الأول فى خلافة معاوية ، وقد بذل القائدان العربيان

---

(١) دخل المسلمون بخارى بقيادة سعيد بن عثمان الذى خلف عبيد الله بن زياد على ولاية خراسان .

(٢) أى تونس الحالية .

فضالة ويزيد جهوداً جبارة ضد المدينة العظيمة ، ولكنها فشلت بسبب مناعة حصون المدينة ودفاع قسطنطين الرابع ، ولم يكن هذا الحصار للقسطنطينية هو الوحيد الذى حدث أيام معاوية ، بل إن الأسطول الإسلامى حاصر المدينة سبع سنوات ، ما بين سنتى ٥٤ ، ٦٠ هـ ، وقاست القسطنطينية كثيراً من جراء هذا الحصار ، ولكنها نجت من شره فى النهاية بفضل « النار اليونانية » ، التى كانت تشتعل حتى على سطح الماء ، وأخيراً عادت قوات المسلمين البحرية من « البوسفور » بعد أن فشلت فى فتح القسطنطينية .

موقف معاوية إزاء الخوارج والشيعة :

كانت الأمة الإسلامية حتى ولى معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب : أتباع بنى أمية وشيعة على ، والخوارج وهم أعداء الفريقين . وكانت بلاد المشرق : العراق وفارس ، مركزاً لنشاط الخوارج الذين كانوا يثورون كلما مكنتهم الفرصة . وقد قويت شوكتهم منذ قيام الدولة الأموية ، فواجه معاوية ابن أبى سفيان معارضة قوية منهم ، وعملوا على مناوأة سلطته فى كل من الكوفة والبصرة ، كما كانوا يرون أن غيرهم من المسلمين كفار ، وأن دماءهم وأموالهم حلال . ولذلك كان لا بد من أن يتبع معاوية معهم طريق الشدة والقمع ليأمن شرهم ، ويحول دون ما يلقونه من بذور التفرقة التى كادت تودى بالأمة الإسلامية .

ولما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ ، عول الخوارج على قتاله ، وكان على رأسهم ورقة بن نوفل الأشجعى ، الذى اعتزل عليا فى خمسمائة من الخوارج فى « شهرزور »[1] فأرسل معاوية إليهم جيشين من أهل الشام .

(١) شهر : زور إقليم واسع فى بلاد الجبل من أردبيل وهمذان وأهلها من الأكراد يمتازون بالبأس والشدة . ياقوت : معجم البلدان .

ولكنه هزم على يد الخوارج ، مما دعاه إلى أن يخاطب أهل الكوفة قائلا : « لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم[1] » . فخرج أهل الكوفة لقتال الخوارج فقالوا لهم : « ويلكم ما تبغون ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا » . فأبى أهل الكوفة إلا القتال حتى يغلبوهم .

وقام من بعدهم جماعة بزعامة « حيان بن ظبيان » ودخلوا الكوفة فى عهد واليها المغيرة بن شعبة بعد أن خطبهم حيان خطبة حماسية ، واتفقوا على مناوأة الخوارج فى غرة شعبان سنة ٤٣ هـ . ولما علم المغيرة بأمرهم قبض على جماعة منهم ومن بينهم حيان وأودعهم السجن ، وضيق على الباقين الخناق حتى غادروا الكوفة ، ثم سير ضدهم جيشاً من الشيعة يربو على ثلاثة آلاف من كبارهم فقضى عليهم قضاء تاماً . وقد ضعفت شوكة الخوارج بفضل ما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة فى معاملتهم ، ولم تقم لهم قائمة مدة ولايته على العراق .

ولما ولى عبيد الله بن زياد بن أبيه البصرة ، تحركوا سنة ٥٨ هـ ، إذ ظنوه عينا ، ولكنه ما لبث أن شتتهم وقتل منهم كثيرين ، ولكن مقاومة الشيعة لم تكلف معاوية عناء كبيرا كالخوارج ، وقد خمدت روح التشيع فى نفوس أهل الكوفة وانضووا تحت لواء معاوية الذى أصبح صاحب السلطان المطلق على إثر نزول الحسن بن علىّ له عن الخلافة ومغادرته الكوفة . وغضبت الشيعة فى الكوفة عند ما رأت المغيرة بن شعبة يلعن علياً كلما قام خطيبا ، وقاطعه زعيمهم « حُجْر بن عدىّ » مرة عندما سمعه يسب عليا ويمدح عثمان وقال له : إن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل ، وإن من تزكون وتطرون أولى

---

(١) البوائق : جمع بائقة وهى الأمر المهلك .

بالذم »[1] . فقال له المغيرة : « ويحك ياحجر ! اتق السلطان وغضبه وسطوته ، فإن غضب السلطان أحيانا مما يهلك أمثالك . وازداد غضب حجر وأصحابه لاستمرار زياد بن أبيه — عندما ولى الكوفة بعد المغيرة — فى لعن على ، وعقدوا الاجتماعات لسب معاوية ، وأدى هذا إلى أن اتبع زياد بن أبيه سياسة الحزم والشدة إزاء الشيعة ، وأرسل أخيراً صاحب شرطته فقبض على حجر وأرسله هو وأصحابه إلى معاوية ، فقتله هو ومن ثبت على ولائه لعلى بن أبى طالب وأما من تبرأ من على فقد عفا عنه ، وذلك فى سنة ٥١ هـ[2] . وصار التشيع من ذلك الحين أمراً نظرياً ، ولا غرو فقد كان ينقص بعضهم الحماس والإخلاص للمبدأ الذى كانوا يعتنقونه .

وتوفى معاوية فى رجب سنة ٦٠ هـ ، وقبره فى دمشق .

٢ — يزيد بن معاوية

٦٠ — ٦٣ هـ = ٦٨٠ — ٦٨٣ م

توليته الخلافة :

اعتلى يزيد عرش الخلافة فى دمشق بعد وفاة أبيه معاوية ، وامتنع عن بيعته : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . أما عبد الله ابن الزبير فقد فر إلى مكة هو والحسين ، وأخذ عبد الله يعمل على بث الدعوة لنفسه ولكنه وجد فى الحسين منافسا قوياً فلم يجرؤ على مناوأته ، وذلك لأن ابن الزبير يعلم أن الحسين أحق بالخلافة منه على اعتبار أنه بعد وفاة أخيه الحسن أصبح رجل الشيعة ، وهو فوق ذلك ابن على بن أبى طالب ، وحفيد النبى

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٤٢ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٥٠ .

صلى الله عليه وسلم . ولذلك عمل ابن الزبير على إخراج الحسين من الحجاز حتى يصفو له الأمر هناك .

ولما طلب عامل المدينة من الحسين بن على أن يبايع يزيدا بالخلافة ، قال له : « أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سراً ولا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية . . . فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً » . فقال له الوليد ، وكان يؤثر العافية : فانصرف على اسم الله . وعلى أثر هذه المقابلة توجه الحسين إلى مكة وكانت الشيعة بالكوفة فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتابا جاء فيه : أما بعد ، فالحمد لله الذى قصم ظهر عدوه الجبار العنيد الذى اعتدى على الأمة ، فانتزعها حقوقها واغتصبها أمورها وغلبها على فيئها ، وتأمر عليها على غير رضى منها ، ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها ، فبعداً له كما بعدت ثمود إنه ليس علينا إمام ، فأقدم علينا لعل الله إن يجمعنا بك على الهدى »[1] . ثم أتبعوا هذا الكتاب بكتب أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذى حضروا الاجتماع ، وقد قيل إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠ هـ[2] .

بين يزيد والحسين بن على :

كان الحسين طيب رجلا طيب القلب ، اغتر بدعوة الشيعة ، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليبلغه حقيقة الأمر ، وخرج إليها مسلم والتقى بالشيعة وانخدع بما شاهد ، وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة ، والتف الشيعة حول مسلم . على أن والى الكوفة وقتئذ ، النعمان بن بشر الأنصارى ،

---

(١) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة ج ١ ص ٣ — ٤ .

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٣٢ .

لم يعمد إلى تتبع مسلم وأصحابه ، ولكن بعض أنصار الأمويين كتبوا إلى يزيد بمسلك النعمان فعزله .

ولى يزيد مكان النعمان ، عبيد الله بن زياد أمير البصرة وجعله أميراً على البلدين وعهد إليه فى قمع الشيعة ، فأخذهم عبيد الله بالشدة وذهب أولا إلى البصرة وخطب فيها ، ثم إلى الكوفة حيث قبض على كبار الشيعة وخاصة مسلم بن عقيل وأنصاره ، وهكذا قضى ابن زياد على بوادر الفتنة . ولم يدرك الحسين هذا الموقف من أول الأمر ، إذ أنه لما استبطأ أخبار مسلم عزم على الخروج فنصح له عبد الرحمن بن الحارث وعبد الله بن عباس بالتريث ، ولكنه لم يستمع إليهما .

خرج الحسين وسار إلى الكوفة على رأس فئة قليله لم يتجاوز عددها ثمانين رجلا ، وقد قابله الفرزدق فى طريقه فسأله الحسين عن أهل الكوفة فقال له : « خلفت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية »[1] : ولما علم ابن زياد بخروج الحسين وأصحابه من الحجاز ، أمر بمراقبة الطرق المؤدية من الحجاز إلى الكوفة ، وعهد إلى قوة من ألف فارس لتأتى بالحسين وأصحابه ، فلما اقترب الحسين من الكوفة منع من دخولها فى غير عنف ، وقال له ابن يزيد التميمى قائد القوة ، إرجع فإنى لم أدع لك خلفى خيراً أرجوه ، ومن ثم داخل الحسين الشك وطلب الرجوع إلى الحجاز والذهاب إلى الخليفة فى بغداد . غير أن القائد عمر بن سعد بن أبى وقاص ، الذى خلف يزيد فى القيادة منعه من ذلك ، كما أن إخوة مسلم بن عقيل صمموا على أن يأخذوا بثأر أخيهم أو يقتلوا دونه ، فنزل الحسين عند رأيهم وسار حتى لقيته خيل ابن زياد ، فعدل إلى كربلاء حيث نشب القتال فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، إذ أن عبيدالله بن زياد أرسل رجلا أشد بأساً من الحر بن يزيد التميمى وهو عمر بن سعد بن أبى وقاص لتأديب

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ص ٦٥ .

الحسين ، ومعه أوامر مشددة بأن يؤتى له بالحسين ومن معه أسرى ، فلما رأى الحسين ضآلة قوته وعجزه على القتال بها طلب الإذن له بالذهاب إلى الخليفة يزيد أو الرجوع إلى الحجاز فرفض طلبه . وأخيراً أراد القتال ، وقاتل الحسين وأصحابه قتالا عنيفاً . وانتهى الأمر بأن قتل وجميع من كانوا معه ولم يبق إلا النساء والأطفال ووقع النهب والسبى فى عسكره وذراريه ، ثم حملت النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة . وقد أدت حادثة كربلاء إلى ازدياد انتشار مذهب التشيع وخاصة بين الفرس ، أما قبل ذلك فقد كاد التشيع أن يكون قاصراً على العرب .

على أن الحسين قد خرج فى شكل عصيان للخلافة وثورة على الدولة الحاكمة دون أن يستعد بقوات كافية لمواجهة الطوارىء والأحداث ودون أن يعمل حسابا لما سيفعله الخليفة فى سبيل احتفاظه بكيانه وتوطيد ملكه ، إذ جرد أكبر عدد من قواته للضرب على أيدى الثوار . وتألم الناس لمقتل الحسين حفيد النبى عليه السلام وابن على ، وخاصة بعد أن اتضح أن عبيد الله بن زياد والى الكوفة والخليفة يزيد بن معاوية لم يعاملا أهل البيت بالإجلال والإكرام الواجبين لمقامهم .

ولقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع فى جميع البلاد الإسلامية ، كما أشعلت فى نفوس الفرس ذلك الحماس الوطنى الذى ساعد بنى العباس على إسقاط دولة الأمويين[١] . وكما قيل إن الحسين — بصرف النظر عن مكانته ومنزلته فى قلوب المسلمين — كان خارجا على الدولة ، فإنه اعتبر شهيداً فى الوقت الذى عد فيه يزيد سفاكا للدماء[٢] وتوحدت صفوف الشيعة عقب تلك الموقعة

---

(١) Sayed Ameer Ali: A Short History of the Saracens, p37 .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, P. 198.

وصمموا على الأخذ بثأر الحسين ، وخاصة الفرس الذين كانوا يرون أن هذا الوقت فرصة تسنح لهم للتخلص من سلطان العرب وسيطرتهم والاستقلال بدولتهم .

بين يزيد وعبد الله بن الزبير :

لم يجرؤ عبد الله بن الزبير على الجهر بطمعه فى الخلافة والحسين على قيد الحياة ، لأنه يعلم أن الحسين أحق بها منه . فلما قتل الحسين أظهر ابن الزبير حقيقة ما يرمى إليه ، ولكنه فى الوقت نفسه أثار السخط على قتلة الحسين وشاد بذكره .

وفى ذلك الحين ، اجتمع أصحاب ابن الزبير حوله وأوهموا له أنه أحق رجل بالخلافة بعد الحسين و بدءوا فى أخذ البيعة له سراً . ولما بلغ يزيد أن ابن الزبير أخذ البيعة لنفسه أقسم ليفتقمن منه كما انتقم من الحسين ، ولكنه آثر أن يبعث رسولا يعرض عليه الصلح كى تصفو العلاقة بينهما فرفض ابن الزبير . ولكن يزيد مع ذلك عالج الأمر بالأناة والصبر ولم يتعجل الحوادث ، حتى اتضح له أن الأمور فى المدينة تسير من سىء إلى أسوأ وفى أشد الحالات فتنة واضطراباً بتحريض ابن الزبير ، وتحرجت الأحوال حين ثار أهل المدينة وخلعوا يزيد وطردوا عامله وضيقوا على من كان بها من بنى أمية حتى استغاثوا بيزيد . وكان أهل المدينة قد ولوا على أنفسهم « عبد الله بن حنظلة الغسيل » ، وبهذا كان هناك ثلاثة يدعون الخلافة : يزيد فى دمشق ، وابن الزبير فى مكة ، وعبد الله بن حنظلة فى المدينة .

ولم يجد يزيد بداً من أن يبدأ العمل الجدى ، فأمر الجيش بالسير إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، وكان من جبابرة العرب طاعناً فى السن مريضاً ، وما كاد الجيش الأموى يصل إلى وادى الحرة الواقع شمال المدينة المنورة حتى خرج إليه أهلها ، وهناك جرت معركة هائلة هى واقعة الحرة ، وأسفرت عن هزيمة

أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم ، وقتل فى هذه الموقعة ألف وسبعمائة من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس وكان من بينهم ثمانون رجلا من أصحاب النبى عليه السلام كما قتل عشرة آلاف من سائر الناس من الموالى والعرب سوى النساء والصبيان ، على أن بنى هاشم لم يشتركوا فى معركة الحرة ولزموا بيوتهم ولذلك لم يقتل منهم إلا ثلاثة فقط . وبعد هذه الهزيمة استباح جيش مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وأسرف هو وجنده فى السلب والنهب والاعتداء ، ولذلك لقبوه « المسرف »(1) .

ويظهر أن العداوة بين الأنصار وبين قريش هي التي أدت فى النهاية إلى حدوث تلك الموقعة ، وقيل إنها صدى لواقعة بدر . على أن موقعة الحرة فى الواقع ، هى نتيجة للتنافس بين فريق يريد الوصول إلى الحكم ، وفريق يدافع عما صار إليه من السلطان : فالحسين والزبير يطالبان الخلافة ، ويزيد يتمسك بعرشه . وفى سبيل ذلك ، استباح كل منهما حرمة الخلافة ، وخربت المدينة بعد تلك الموقعة وفقدت رونقها ، على أنها ظلت مركزاً من المراكز العلمية الأولى فى الإسلام ومقراً لكبار المفسرين والمحدثين من أهلها .

وبعد واقعة الحرة ، أمر يزيد قائده مسلم بن عقبة المرى بالمسير إلى مكة حيث يقيم عبد الله بن الزبير ، إلا أن مسلماً أدركه الموت أثناء الطريق ، فتولى قيادة جيوش يزيد من بعده الحصين بن نمير السكونى ، وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم ، فسار بالجيش إلى مكة وحاصرها فى أوائل سنة ٦٤ هـ ، وهذه أول مرة فيها تحاصر مكة فى التاريخ الإسلامى ، وكان ابن الزبير قد آوى إليها واعتصم بها على اعتبار أنها حرم مقدس لا يحل فيه القتال ، وكان كثير من أهل المدينة قد انضوى تحت لواء عبد الله بن الزبير للدفاع عن مكة كما انضم

---

(1) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٢ .

إليه بعض الخوارج ، ونصب على جبل أبى قبيس المواجه للكعبة المجانيق . أما أصحاب ابن الزبير فتحصنوا فى بيت الله الحرام ، ودار القتال فأصابت المجانيق الكعبة وهدمتها وأحرقتها حتى تواردت أحجار المجانيق على البيت مما أدى إلى هدم الكعبة فى الثالث من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ[1] .

بينما كان القتال دائراً بين الفريقين جاءهم خبر وفاة يزيد ، فأرسل الحصين إلى ابن الزبير يقول : « إن الذى وجهنا إلى محاربتك قد هلك ، فهل لك فى الموادعة وتفتح لنا الأبواب فنطوف بالبيت ويختلط الناس بعضهم ببعض » . فأجابه ابن الزبير إلى طلبه ووقفت الحرب بين الفريقين ، ثم دعا الحصين عبد الله ابن الزبير إلى الذهاب معه إلى الشام ليأخذ له البيعة من أهلها ، فأبى ابن الزبير لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة . وبذلك عاد الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة ، بعد أن ألحقوا بالكعبة الخسائر الفادحة ، وهكذا ضاعت الفرصة من ابن الزبير .

٣ — معاوية الثانى

٦٣ هـ = ٦٨٠ م

بوفاة يزيد ، انتقل الملك إلى ابنه معاوية المعروف باسم معاوية الثانى ، وكانت سنه إذ ذاك ثمانية عشرة عاما ، ولم يزد عهده فى الخلافة على أربعين يوما ، وكان انتقال الملك إليه بوصية من أبيه جرياً على السنة التى سنها معاوية ، وهى حصر الملك فى بنى أمية ، ولكن هذه الوصية لم تلق احتراماً وتأييداً ، ولذلك قام الخلاف مباشرة بعد وفاة يزيد ، فقد كان معاوية شاباً مريضاً ضعيف الإرادة ، فلم يلبث أن تنازل عن الخلافة وفكر فى ترشيح رجل للخلافة كما فعل

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٧ .

من قبل أبو بكر وعمر بن الخطاب ، ولكنه لم يجد الرجل الذى يصلح لها فاقتدى بعمر فى اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم رجلا فلم يفلح ، فترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم من يشاءون ، ثم لزم بيته حتى مات بعد أيام من تنازله عن الخلافة .

اضطرب أمر بنى أمية على أثر تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة ، ولكنهم استطاعوا أن يسيطروا على الموقف ، وعقدوا اجتماعاً فى الجابية سنة ٦٤ هـ بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة ، وجعلوا ولاية الحكم من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد ، وبهذه الطريقة أرضوا جميع الذين كانت تتوق نفوسهم للخلافة كما وحدوا كلمة أنصارهم .

٤ — مروان بن الحكم

٦٤ — ٦٥ هـ = ٦٨٣ — ٦٨٥ م

مروان بن الحكم من البيت الأموى الذى طالما عادى النبى عليه السلام أيام دعوته ، ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة قرّب مروان إليه واتخذه مشيراً له وأصبح ساعد عثمان وكاتبه ومدبره ، وبعد مقتل عثمان بايع علياً وأقام بالمدينة واعتزل السياسة بعد واقعة الجمل ، وظل على هذه الحال حتى آلت الخلافة إلى معاوية فولاه على المدينة ، ولما مات معاوية الثانى وأصبح منصب الخليفة شاغراً احتدم النزاع بين عرب الشام على الخلافة . وساء قبيلة « قيس » حكم بنى أمية الذى اعتمد على اليمنيين ، فاجتمعت بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى فى مرج راهط وبايعت عبد الله بن الزبير ، كما اجتمعت « كلب » حيث مال فريق إلى خالد بن يزيد بن معاوية وفريق آخر مال إلى مروان بن الحكم

ابن العاص ، غير أنه ظهر لهم أن الفرع السفيانى ليس فيه من يستطيع مناهضة ابن الزبير فقد كان خالد صغيراً ، فعدلوا عنه إلى مروان بن الحكم لسنة وشيخوخته ، واتفقوا على أن يلى الخلافة من بعده : خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد بن العاص .

نقل الملك إلى الفرع المروانى :

لم يستقر الأمر لمروان بن الحكم إلا بعد أن بذل جهداً كبيرا ، فقد سار إلى الضحاك بن قيس الفهرى وهزمه فى موقعة مرج راهط فى المحرم سنة ٦٥ هـ ، وبذلك انتصر العنصر اليمنى على المضرى ، وظاهر هذه الموقعة أنها بين الأنصار وابن الزبير وبنى أمية ، ولكنها كانت فى الواقع بين عرب الشام « القيسية » وعرب الجنوب وهم « كلب » . وقد دامت هذه الموقعة عشرين يوماً وانتهت بهزيمة القيسية هزيمة شنعاء ، وقتل فيها الضحاك بن قيس ، وهكذا انتصر مروان بن الحكم . وقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية القبلية بين اليمنية والمضرية من جديد ، لا فى الشام فحسب ، ولكن فى سائر الولايات الإسلامية وخاصة فى خراسان ، وظهر العداء بين اليمنية والمضربة فى صورة نزاع متصل بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصى البلاد التى وصلت إليها الفتوح العربية فيما شنه هؤلاء وأولئك من حروب أهلية ومعارك دموية[1] وقد أسفرت موقعة مرج راهط عن نتائج هامة : فقد انتقل الملك من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى ، وأصبح نظام الملك الوراثى الذى سنه معاوية حقيقة واقعة ، وبعثت العصبية القبلية التى كانت عاملا كبيرا فى مجرى الحوادث فى العصر الأموى .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٢٢ .

سياسة مروان ازاء الأمصار :

وجه مروان اهتمامه بعد ذلك إلى الأمصار الأخرى غير الشام ، فذهب بنفسه ومعه ابنه عبد العزيز إلى مصر ، حيث كان عبد الله بن الزبير قد أرسل إليها والياً من قبله اسمه « عبد الله بن جَحْدم » . وقد استطاع مروان أن يهزم ابن جحدم وأتباعه فى موقعة الخندق[1] قرب الفسطاط فى أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، و بنى مروان الدار البيضاء التى اتخذها مركزاً له ، ثم أخذ البيعة من الناس ، إلا أن نفراً قليلا ظلوا على بيعتهم لابن الزبير ، ولم يجد مروان إزاء إصرارهم إلا أن ضرب أعناقهم[2] ، وولى مروان ابنه عبد العزيز على مصر وعاد هو إلى الشام . و بعد عودته إلى بلاد الشام سير حملتين : إحداهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة ولكنها هزمت ، والأخرى إلى بلاد العراق حيث كان الشيعة قد قاموا فى الكوفة سنة ٦٥ هـ ، وأظهروا ندمهم على مافرطوا فى حق الحسين وتابوا إلى الله من مسلكهم إزاءه ، ولذلك سموا « التوابين » وقد عزموا على الأخذ بثأر الحسين وانتزاع الخلافة من بنى أمية و إسنادها إلى أحد رجال البيت ، فلم تقم الحملة بشىء يستحق الذكر .

نهاية حكمه :

لم يحكم مروان مدة طويلة ، فقد كان شيخاً مسناً ، و بعد أن تم له الأمر فى مصر والشام ، حاول تعديل ماتم فى مؤتمر الجابية ، بتحويل الخلافة من بعده لابنه عبد الملك بدلا من خالد بن يزيد ، وكان مروان قد تزوج أم خالد

---

(١) كان أصحاب ابن جحدم قد أشاروا عليه بأن يحفر خندقا وقد تم حفره فى شهر واحد وموقعه الآن بجهة القرافة .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .

« أرملة يزيد » محاولة منه فى إذلال خالد أو ليرجعه عن رأيه فى الخلافة ، وكان يحقر من شأن خالد ليصد عنه أهل الشام ، وقد دخل خالد يوماً على مروان فنسبه وعيره بأمه ووصفها وصفاً قبيحاً . فغضب لذلك وأخبر أمه بما حدث ، فقالت له « لايعرفن ذلك منك وأسكت فإنى أكفيكه » ، وقد انتقمت أم خالد من مروان بأن وضعت على وجهه وسادة لم ترفعها حتى مات ، ولما علم بذلك ابنه عبد الملك أراد أن يقتلها ، فأشير عليه بالعدول عن رأيه حتى لا يتحدث الناس بأن إمرأة قتلت أباه ، فيلحق به العار[١] .

ومات مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه عبد الملك ، ثم لابنه عبد العزيز ، فكان ذلك توكيداً للنظام الذى وضعه معاوية وهو نظام الملك الوراثى ، وهكذا نقض مروان العهد الذى أخذه على نفسه فى مؤتمر الجابية .

٥ — عبد الملك بن مروان

٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٥ — ٧٠٥ م

ولد عبد الملك بن مروان فى المدينة سنة ٣٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان ، ويجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه فى أبى العاص ، وأمه عائشة بنت معاوية ابن المغيرة بن أبى العاص بن أمية . اتصف بالشهامة ، وعرف بالتدين فقد حفظ القرآن الكريم عن عثمان بن عفان ، وسمع الحديث من أبى هريرة وجابر ابن عبد الله وغيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٧٣ .

الصعوبات التى واجهته :

١ — ظهور التوابين :

وقد عمل عبد الملك منذ توليته أمر الخلافة على توطيد سلطان الأمويين فى الدولة العربية ، فبدأ بإرسال الإمدادات الوفيرة إلى عبيد الله بن زياد والى الكوفة ليتمكن بها من القضاء على نفوذ الشيعة الذين كانوا قد اجتمعوا فى الكوفة قبل وفاة مروان بن الحكم ، ونادوا بضرورة العمل على أخذ ثأر الحسين ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « التوابين » وأمروا عليهم رجلا إسمه سليمان بن صرد ، وانضم إلى تلك الطائفة عدد وافر من الناس حتى بلغ عددهم أربعة آلاف ، واجتمع التوابون وساروا حتى وصلوا إلى « عين الوردة » سنة ٦٥ هـ حيث اشتبكوا بعبيد الله بن زياد الذى أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق ، ثم أمره عبد الملك بن مروان عليها ولحق بالشيعة كثير من أهل البصرة والمدائن ، ولما تلاقى الجيشان حلت الهزيمة بالشيعيين بعد أن أبلوا بلاء حسناً وقتل رئيسهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم[1] . وقد أدت تلك الواقعة إلى نفس النتيجة التى انتهت إليها واقعة كربلاء .

٢ — ثورة المختار :

ولم يكد عبيد الله بن زياد يفرغ من التوابين حتى فوجىء سنة ٦٦ هـ بظهور المختار بن أبى عبيد الثقفى ، أحد قواد الجيوش الإسلامية فى العراق زمن عمر ، إذ أنه لما اضطربت أحوال الدولة العربية بعد مقتل على ، أراد المختار أن يستعيد نفوذه ، فاتصل بالحسن بن على بن أبى طالب ، فلما تخلى الحسن عن حقه

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص٧٣ — ٧٩ .

فى الخلافة لمعاوية اتصل بالحسين ، و بعد مقتل الحسين اتصل بابن الزبير . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من التقلب ، فقد كان من الأمويين ثم أصبح من أصحاب ابن الزبير ، ولكنه مالبث أن سجن فى الكوفة لأن واليها أساء الظن به ، إلا أن المختار أعمل الحيلة واستمال إليه الشيعة وادعى أنه مرسل من قبل محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، للأخذ بثأر الحسين . و بعد إطلاق سراحه استمال أيضاً فريق الموالى الذين كانوا بالكوفة وكون جيشاً من العرب والموالى وقاد حركة عدائية ضد والى الكوفة واستولى فعلا عليها . وأخذ يعد العدة لمحاربة عبيد الله بن زياد للانتقام منه : لأنه قاتل الحسين ، ولأنه هو الذى سجنه حين كان يدعو للحسين فى الكوفة ، وضربه ضربة أفقدته إحدى عينيه ، و بذلك يمكن القول أن ثورة المختار كانت لأسباب عامة وأسباب خاصة .

التقت قوات ابن زياد مع جيش المختار الذى كان يقوده إبراهيم بن الأشتر عند نهر الخازر ، أحد فروع دجلة ، ودارت الدائرة على ابن زياد ، وقتل فى تلك الواقعة هو وكثير من أشراف أهل الشام ، وكان عبد الملك قد سار فى سنة ٦٦ هـ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار فى الكوفة ، و بينما هو فى طريقه أتاه فى إحدى الليالى خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده[1] ، و بذلك ثأرت الشيعة لنفسها من مقتل الحسين . إلا أن تلك الواقعة على الرغم من أنها عدت انتصاراً لأتباع الحسين ، فإنها لم تؤد إلى ازدياد نفوذ المختار أو تقوية سلطانه فإن ابن الزبير وابن الحنفية الذين كان المختار يعلن أنه من أنصارهما ومن أتباعهما كانا يسيئان الظن به ، بل إن ابن الحنفية تبرأ منه حين علم بما يذيعه المختار من أن له نفوذاً علوياً و بما ينشره من المبادىء الغريبة كقوله : إن الله يجوز عليه البدء[2] ، وكقوله بمبدأ تناسخ الأرواح ،

(١) المسعودى مروج الذهب ج ٢ ص ٣١ .

(٢) أى أن الله عز وجل يقول قولا ثم تبين له خطؤه فى المستقبل فيعدل عنه .

وزعم أن الملائكة تقاتل معه ، وبأنه حصل على كرسى قديم لعلى بن أبى طالب ، يجلس عليه ليجتذب احترام الناس له . وأمر عبد الله بن الزبير أخاه مصعب ابن الزبير بعد أن ولاه العراق بمقاتلة المختار ، فوقعت بينهما بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ همعركة كبيرة ، انتهت بهزيمة المختار وقتله هو ونحو سبعة آلاف من أتباعه ، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم « المختارية .

وهكذا اختفى المختار من عالم التاريخ دون أن يكون للحركة التى قادها من الموالى والعرب أية نتيجة ، بل كل ما يمكن أن يقال عنه إنه رجل قام بدور سياسى فى التاريخ الإسلامى .

٣ — بين عبد الملك وابن الزبير :

بالقضاء على ثورات التوابين والمختارية ، استؤنفت الخصومة بين ابن الزبير وعبد الملك أى بين الحجاز والشام . وللوصول إلى القضاء على ابن الزبير قضاء تاما ، لم يسرع الخليفة فى ملاقاته بل عمد إلى الأناة فى بدء المعركة معه حتى يهزم أعداءه الواحد تلو الآخر ويتفرغ للعدو الأكبر . بدأ عبد الملك بالقضاء على المختار ، وهادن إمبراطور الروم ليأمن جانبه أثناء قتاله ابن الزبير ، ثم قضى على عمرو ابن سعيد ليتخلص من أمر مطالبته بالخلافة . وأظهر عبد الملك بصبره على حركات ابن الزبير فى الحجاز إلى ذلك الوقت وعدم تعجله فى القضاء عليها أنه رجل سياسى وداهية من دهاة العرب :

بدأ الخليفة بأن هادن إمبراطور الروم سنة ٧٠ هـ حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيغير على بلاد الشام ، وبعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدى إليه نحو خمسين ألف دينار كل عام[1] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣ .

كذلك نكل عبد الملك بعمرو بن سعيد وهو الذى وعد فى مؤتمر الجابية بأن يأخذ الخلافة بعد موت مروان وخالد بن يزيد ، وكان عمرو بن سعيد يرى أحقيته بالخلافة دون عبد الملك فكتب إليه عبد الملك « إنك لتطمع نفسك ، بالخلافة ولست لها بأهل » ، فرد عليه عمرو يهدده ويتوعده فى كتاب ينم عن الازدراء والاستهتار[١] . وجعل عبد الملك الولاية من بعده لابنه الوليد ثم عبد العزيز ، وترك عمرو بن سعيد ، وكان هذا هو العامل الأساسى الذى دفعه إلى الانتقام من عبد الملك ، فزحف عمرو على دمشق منتهزاً فرصة غيابه عنها ، ولكن عبد الملك عاد إلى دمشق وقبض على عمرو وقتله بيده مما عده التاريخ وصمة فى جبين هذا الخليفة ، لأن عمراً لم يفعل شيئاً أكثر من أنه طالب بحق اعترف له به من قبل . بذلك قضى عبد الملك على أعدائه وتفرغ لابن الزبير .

خرج عبد الملك بعد ذلك سنة ٧١ هـ إلى العراق ، بعد أن صالح القيسيين ، لقتال مصعب بن الزبير ، فأخذ يستعد الأخير لملاقاته ولكن لم يستطع جند مصعب الوقوف أمام عبد الملك . وأرسل عبد الملك كتبا إلى قواد مصعب يمنيهم حتى استمالهم إليه ، إلا أن إبراهيم بن الأشتر أعطى مصعبا الكتاب الذى أرسله إليه عبد الملك وأبلغه خبر القواد الذين أخفوا كتب عبد الملك وطلب ابن الأشتر وقتل هؤلاء القواد جميعاً ، ولكن مصعباً رفض ذلك وأمر بحبسهم فقط[٢] . وكان لهذه السياسة أثرها فقد خان القواد مصعباً ونشب القتال بين الفريقين بالقرب من باجمرا[٣] وهزم مصعب ومن كانوا معه وقتل أخيراً بعد أن أبلى أحسن البلاء ، ودخل عبد الملك الكوفة فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ ، وولى على البصرة والكوفة عمالا من قبله[٤] .

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٠ .

(٣) بين الكوفة وواسط وهى أقرب إلى الكوفة منها إلى واسط ، وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) الطبرى جـ ٢ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

وكان عبد الله بن الزبير لا يزال فى الحجاز ، حيث دعا لنفسه بالخلافة . ولما كان عبد الملك يرى أن ابن الزبير قوى الشكيمة وأن هزيمته ليست من الأمور الهينة وأنه لابد لكى تصفو له الأمور من القضاء على ابن الزبير . فقد ندب لقتاله رجلا عرف بالقسوة والصلابة هو الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى كان له فضل كبير فى توطيد عرش عبد الملك وعرش أولاده من بعده .

ينتهى نسب الحجاج إلى ثقيف جد القبيلة ، ولد سنة ٤١ هـ ، فى قرية الطائف فى الحجاز فى بدء خلافة معاوية بن أبى سفيان من أسرة فقيرة ، وهو ابن يوسف ابن الحكم زوج الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود . وكان أبواه يعملان فى نقل الطين والحجارة بالطائف . وكان الحجاج قبيح الوجه قميئًا دقيق الساقين أعور معروق الأصداغ ، ولما اشتد ساعده أرسله أبوه إلى معلمى القرية الذين راعهم استعداده وطلاقة لسانه ، حتى أصابت أقرانه الغيرة من براعة بيانه فأخذوا يعيرونه بقبحه ، ومرت الأيام وخرج أقرانه للجهاد إلا ابن يوسف الذى لم يجد من يختاره ، وسار لذلك كئيب النفس إذ أنه لا يحس جبناً ولا نقصًا اللهم إلا ضعف البنية . وزاول الحجاج تعليم الصبيان فى قرية ثقيف سعيًا وراء الرزق ، واكتسب من هذه الحرفة الفصاحة والقدرة على الخطابة . وواتته الفرصة ودخل فى خدمه روح بن زنباع الجذامى رئيس شرطة عبد الملك بن مروان ووزيره ، وتقدم بجرأته إلى أن أصبح من رؤساء الجند . وحين صدرت أوامر عبد الملك للجند ورؤسائهم بالسير للجهاد ، تراخى بعض جند ابن زنباع يأكلون ويسمرون ، فانتهرهم الحجاج ، فسبوه فأمر بإحراق خيامهم وضربهم بالسياط ، فاشتكوا إلى ابن زنباع ، فذهب الى الخليفة شاكيًا الحجاج . فلما سأله الخليفة عن عوامل ماأقدم عليه ، قال : ياأمير المؤمنين ! إن أمرى من أمرك وإن عصانى جندى فقد عصاك ، وأما خيام ابن زنباع فقدرتك على تعويضه عن خيامه خيامًا تغنى عن اللجاج .

لما تبين لعبد الملك عظم مقدرة الحجاج الحربية ، أرسله للقضاء على ابن الزبير فى الحجاز ، وهناك ظهرت قوة إرادة الحجاج . خرج الحجاج إلى الطائف ، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها ومن معه من الجند ، ثم سار إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيق ، وهى قاذفات الحجارة وبمثابة المدافع فى العصر الحاضر ، وأقبل الحجاج على المنجنيق يضرب وتره بيده فتنزل الحجارة مدمرة حول الكعبة حتى تصدعت جدرانها وما هاب ولا فرق ، حتى أيقن أهل مكة لما رأوا البرق والرعد أن غضب السماء قد حلّ . وأرغم بذلك أهلها على طلب الأمان ، فانضم بعض أتباع عبد الله بن الزبير وغيرهم من ذوى قرباه إلى الحجاج ، وبقى ابن الزبير فى عدد قليل من أنصاره وخرج ابن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالا شديداً واستبسل فى الدفاع وحمل عليه العدو وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

وبعد انتصار الحجاج على ابن الزبير كافأه عبد الملك بتوليته على مكة واليمن واليمامة ، ولم يمض زمن طويل حتى ولاه على المدينة أيضًا ، وبذلك أصبح الحجاز كله تحت سلطانه . وكان الحجاز موطن المعارضة الشديدة لبنى أمية ، ولذلك أتبع فى السنوات الثلاث التي أقامها فيه حكم الاضطهاد والشدة وخاصة إزاء أهل المدينة ، إذ أهان كبار الصحابة فيها حتى شكاه عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الخليفة ، فكتب إليه الخليفة بألا يتعرضّ لعبد الله ولا لأنس بن مالك خادم النبى . ونفذ الحجاج أثناء إمرته على الحجاز سياسة الأمويين . فهدم الكعبة التى بناها ابن الزبير فصارت على النحو الذى كانت عليه فى الجاهلية للقضاء على أثر ابن الزبير .

٤ — القضاء على فتن العراق :

ظل الحجاج فى الحجاز حتى سنة ٧٥ هـ حين رأى عبد الملك أن ينتفع بشدته فى العراق ، حيث كانت الحالة فى غاية الاضطراب لوجود الخوارج الذين دانوا بالديمقراطية التامة ، فكانت الخلافة عندهم حق لكل مسلم يتصف بالتقوى والشجاعة بصرف النظر عن كونه عربيًا أو غير عربى قرشيًا أو غير قرشى .

وخرج الحجاج من الحجاز لا فى جيش ضخم بل أثنى عشر راكبًا وقصد الكوفة وصعد المنبر متلثما . وحين ارتقى المنبر أزدرته العيون ، وهمّ بعض القوم أن يرميه بالحصى ، فما لبث أن قام فألقمهم الحجارة من منطقة العنيف ، فإنه لما تكاثر الناس بالجامع كشف اللثام عن وجهه وخطبهم خطبته المشهورة فى الأدب والتاريخ ، وكلها استهتار بأهل العراق وتوعد لهم ، لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بنى أمية ، وقد بدأها بقوله :

« أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ياأهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحىّ . . . » وكلها وعيد لأهل العراق عامة وللخوارج خاصة . ولما انتهى الحجاج من خطبته لم يعترض عليه أحد ممن كان فى المسجد ، فقد ارتاعوا وأسلسوا له فى الظاهر القياد ، لما رأوا من تهديده بجنى الثمار التى حان قطافها . وهذه الخطبة تبين سياسة الشدة التى اعتزم الحجاج أن ينتهجها مع أهل العراق ، فقد نشر بينهم حكمًا عرفيًا عسكريًا وأسرف فى القتل ، فكان يأخذ بالريبة والظنة ويقتل قوما ليرهب آخرين ، فإنه ماترك محتجًا على فعل إلا قضى عليه ، وما كان ينكر أنه أجرأ الناس على سفك الدماء .

ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة انتقل إلى البصرة ، وسلك نفس السبيل الذى سلكه فى الكوفة ، فخطبهم خطبة لا تختلف عن خطبته التى ألقاها فى الكوفة .

٥ — القضاء على ثورات الخوارج :

من أهم الصعوبات التى اعترضت الخليفة عبد الملك ، الثورات التى قام بها الخوارج الأزارقة ، وكانوا قد اشتهروا بحملاتهم العنيفة وبمفاجآتهم الليلية لأعدائهم ، وولى عبد الملك لقتالهم ، المهلب بن أبى صفرة[1] ولكنه استعمل الأناة ، ولم يتعجل أمر قتالهم ، وكان الحجاج إذ ذاك قد رحل من الكوفة بعد أن استخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة ، وسار إلى البصرة ومنذ وصوله إليها ابتدأت المعركة ضد الخوارج الأزارقة ، وزعيمهم الشاعر المشهور قطرى بن الفجاءة . إذ أن الحجاج كتب إلى المهلب يعنفه على تباطئه فى قتالهم .

بدأت الحرب بين المهلب والأزارقة ، وفيها انهزم الأزارقة فى واقعة رامهرمز وجلوا عن العراق . ووالى المهلب زحفه حتى أجلاهم عن فارس أيضاً ، وكان الحجاج عقب جلاء الأزارقة عن الأقاليم التى كان لهم نفوذ فيها ، يرسل عمالا لجباية الخراج ، وما لبث الخليفة عبد الملك أن ولى المهلب خراج فارس للإنفاق منه على قتال الأزارقة . ويسر مهمة المهلب ما كان من أمر انقسام الأزارقة على أنفسهم فقد كانوا فى بادىء أمرهم فرقة واحدة ثم انقسموا

---

(١) المهلب من قبيلة الأزد (أو الأسد) ، وهى قبيلة كبيرة ، استقر بعض أفرادها فى عمان وهؤلاء أطلق عليهم أزد عمان وأقام بعضهم فى الحجاز ويقال لهم أزد سراة ، وهى قبيلة مشهورة فى دولتى بنى أمية وصدر بنى العباس ، وزادت شهرة المهلب بعد تلك الوقائع الحربية الهائلة التى خاض غمارها فى صدر التاريخ الإسلامى .

على أنفسهم : فالعرب التفوا حول قطرى زعيم الأزارقة[١] ، والموالى خرجوا عليه وعرف زعيمهم باسم عبد ربه الكبير ، وكان أنصار قطرى من العرب لا يتجاوز عددهم ربع هذه الأزارقة .

وهنا وجد المهلب الفرصة سانحة ، فحارب الأزارقة وحاصر بلدة جيرفت وكان فيها الخوارج من الفرس واشتد حصار المهلب للمدينة وهزم عبد ربه وأصحابه ، مما أدى إلى كسر شوكة الخوارج ولكن قطرى زعيم الخوارج من العرب ، سار إلى طبرستان ، فسير الحجاج جيشاً من أهل الشام بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى ، وهزم قطرى وقتل أثناء فراره بعد أن ظل نحو عشرين عاما زعيما للأزارقة ، لقب خلالها بلقب أمير المؤمنين ، ولم تجد نفعًا محاولات عبيدة ابن هلال ، الذى خلف قطرى فى الزعامة وحاصر بلدة قومس فقد قضى عليه سفيان كما قضى على قطرى ، وكان عبيدة آخر زعماء الأزارقة ، وبذلك قضى المهلب على الأزارقة وزعيمهم فى واقعة جيرفت .

وبعد أن تم القضاء على الأزارقة ، قاتل الخوارج الصفرية[٢] الذين كان يتزعمهم شبيب[٣] ، وأبلى الحجاج أحسن البلاء ، ولم تفترهمة شبيب فى القتال فقد دل على جرأة نادرة على كثرة أعدائه وقلة أتباعه ، وحكم المنطقة التى أقاموا فيها فى الجزيرة ثم فى سهل العراق لمدة ثلاث سنوات وهزم جيوش الحجاج طوال هذه المدة الواحد تلو الآخر . زحف شبيب حتى أصبح على أبواب الكوفة ، ولكنه تراجع لكثرة جند العدو ، وما لبث أن هاجم

---

(١) كان نافع بن الأزرق أول زعيم للخوارج الأزارقة .

(٢) ظهر الخوارج الصفرية فى العراق ، ومن مبادئهم : عدم التفرقة بين الكبائر ، وجعل كل كبيرة سبباً فى الكفر .

(٣) نسب الخوارج الصفرية فى بادىء الأمر إلى صالح بن مسرح ، وخلفه فى زعامتهم شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى .

الكوفة بعد أن رحل منها الحجاج إلى البصرة ودخلها ، وكانت غزالة زوجة شبيب تحارب معه . وعلى أثر دخول شبيب الكوفة ، عاد إليها الحجاج مسرعًا ، ولكن فى الصباح خرج الحجاج ، إذ رأى أن يتراجع دون قتال ، وفى هذه المناسبة هجاه الشعراء بقولهم :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامةٌ فتخاء[1] تنفر من صفير الصافر

ولكن القتال استؤنف بعد قليل بين الحجاج وشبيب ووقعت بين الطرفين عدة معارك ، من أهمها واقفة سوق حكمة عند الكوفة وواقعة دجيل ، وفيهما هزم شبيب وفر وغرق جزء من جيشه ، وبموته سنة ٧٧ هـ انحط شأن الخوارج .

٦ — فتنة ابن الأشعث :

وتفاقم خطر المشرق حين خرج عبد الرحمن بن الأشعث[2] على طاعة عبد الملك والحجاج . ذلك أن الحجاج كان قد ولى على سجستان عبيد الله ابن أبى بكرة ، وكان ملك كابل فى أرض سجستان قد ماطل فى دفع الأتاوة التى اعتاد أداءها للدولة العربية ، فأمر الحجاج الوالى ابن أبى بكرة بقتاله ، ولكن هذا الوالى قتله ، فجهز الحجاج جيشًا بلغ أربعين ألف مقاتل عرف بجيش الطواويس لحسنه وعظم استعداد رجاله ، وولى قيادته عبد الرحمن بن الأشعث ، فخرج من العراق وسار إلى الحدود الشرقية لقتال ملك كابل ، وكان ابن الأشعث شديد الزهو والحذر ، ولذا عنفه الحجاج واستبطأ الخطط الحربية التى رسمها للقتال بل رماه بالجبن . وكان عبد الرحمن حانقًا على الحجاج لشدته وقسوته . وكذلك كان الجيش . فعاد ابن الأشعث وجنده إلى العراق وعصوا

---

(١) فتخاء : شديدة الذعر والفزع .

(٢) هو ابن محمد بن الأشعث بن الليث بن السكندى ، من قبيلة كنده .

أمر الحجاج وخرجوا عليه دون عبد الملك ، واستوثق ابن الأشعث أن ملك كابل سيحميه فى حالة هزيمته ويأخذ بناصره .

ووقعت الحرب بين الحجاج وابن الأشعث فى منطقة البصرة ، حيث هزم ابن الأشعث فى واقعة الزاوية . ثم اتجه شمالا إلى الكوفة . وخشى الخليفة العاقبة ، فأرسل ابنه عبد الله وأخاه محمد بن رضوان لمفاوضة ابن الأشعث ، على أن يوليه أى إقليم يشاء على أن يسوى العداء بين أهل الشام وأهل العراق ، ويعزل الحجاج عن أساء إليه ، كما أن ابن الأشعث لم يقبل هذا الصلح ، ثم حدثت واقعة « دير الجماجم » سنة ٨٢ هـ وفيها هزم ابن الأشعث وفر ، وألقى بنفسه من حصن عال ومات وقبض على كثيرين من أتباعه ونكل بهم الحجاج [١] ، وبذلك انتهت حركة ابن الأشعث بالفشل .

وعلى أثر ذلك عظم سلطان الحجاج وهدأ المشرق . وبسط عبد الملك يده عليه ، وأضاف إلى أعمال الحجاج خراسان وسجستان وعمان ، وصار بذلك حاكما على نصف الدولة العربية . وضعفت ثقة الحجاج فى جند العراق وعول على جند الشام ، ولكى لا يختلط جند الشام بجند العراق ، ترك الكوفة والبصرة وأنشأ بلدة واسط [٢] ، وكان إنشاؤه ختاما للفتن التى قامت فى ذلك العصر [٣] .

٧ — استرداد إفريقية :

هذه الأحداث لم تشغل عبد الملك عما كان يدور فى إفريقية ، إذ أن البربر كانوا قد جمعوا جموعهم فى مستهل خلافته ، وهاجموا العرب فى القيروان وكانوا

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ٢٢٧ .

(٢) تقع واسط بين مدينتى الكوفة والبصرة . وقد سميت كذلك لتوسط موقعها بين هاتين المدينتين .

(٣) على ابراهيم حسن : الحجاج بن يوسف الثقفى ، بحث فى مجلة العلوم ، العددان الثامن والتاسع ، أكتوبر ونوفمبر ١٩٣٧ .

قليلين فهزموهم وقتلوا معظمهم ، كما قتلوا عقبة بن نافع والى إفريقية وسقطت القيروان فى أيديهم . وقد أرسل عبد الملك جيشاً لاسترداد تلك البلاد سنة ٦٩ هـ ولكن البربر والرومان قضوا عليه ، كما أرسل جيشاً آخر على رأسه حسان بن النعمان ، استرد القيروان وقرطاجنة ، وهزم الرومان والبربر ، ومدّ النفوذ الإسلامى حتى شواطىء المحيط الأطلسى ، ولكن نهاية جهوده لم تكن موفقة لأن البربر استجابوا لدعوة امرأة أطلق عليها لقب « الكاهنة » . وملكوها عليهم ، واضطروا الجيش إلى الانسحاب إلى برقة ، ولقد ملكت الكاهنة خمس سنوات . وأخيراً أمد عبد الملك قائده حسان بن النعمان بمدد حربى سنة ٧٩ هـ ، فسار لاسترداد شمالى إفريقية ، وفشلت الكاهنة فى مقاومته وهزمت بعد أن خاضت موقعة هائلة على سفوح جبال أطلس . وقتلت فى تلك المعركة ، وبعد قتلها استطاع حسان أن يحكم إفريقية وأن ينشر السلام بين أهلها . .

تقدير عبد الملك :

كان عبد الملك أول من تجبر من الملوك ، وأظهر أبهة الملك بخلاف من سبقه من الأمويين ، وقد تجلى بأسه وجبروته حين منع الناس من الدخول عليه ومن التكلم بحرية فى حضرته . خطب عبد الملك الناس يوما فقال : « أيها الناس ! إنى والله ما أنا بالخليفة المستضعف[1] ولا بالخليفة المداهن[2] ، ولا بالخليفة المأفون (الضعيف الرأى)[3] ، فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا »[4] . واشتهر عبد الملك بالحزم وأصالة الرأى كما كان أديبا فصيحا وشاعراً مجيداً .

---

(١) يقصد عثمان بن عفان .

(٢) يقصد معاوية .

(٣) يقصد يزيد بن معاوية .

(٤) العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٨٨ .

وفى سنة ٨٦ هـ أراد عبد الملك أن يجعل ابنه الوليد ولياً للعهد دون أخيه العزيز ، وطلب إلى أخيه أن ينزل عن حقه بنفسه ، فرفض ، إلا أنه توفى . وتمكن بذلك عبد الملك من أخذ البيعة لابنه الوليد . وتوفى عبد الملك سنة ٨٦ هـ .

٦ — الوليد بن عبد الملك

٨٦ — ٩٦ هـ = ٧٠٥ — ٧١٥ م

اعتلى الوليد عرش الخلافة فى وقت كان أبوه قد قضى على الأزمات التى واجهت الدولة ، وثبت قواعد العرش الأموى بعد أن تزعزعت أركانها بعد موت يزيد ابن معاوية . وكان قد قضى كذلك على المنافسين أمثال ابن الزبير وابن الأشعث ، فانتهى بذلك أمر الفتن الداخلية ، ولذا تمتع المسلمون فى عهد الوليد بحياة هادئة مثمرة واتسعت أطراف الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً . وعصره عصر التوسع والفتح ، لأنه فى السنوات العشر الذى قضاها فى الخلافة استؤنفت الفتوح الإسلامية التى وقفت منذ عصر عثمان بسبب اضطراب أحوال الخلافة ، وأضيفت إلى الدولة الإسلامية أقطار واسعة كان لها أعظم الأثر فى نشر المدنية الإسلامية والنفوذ العربى . وقامت الفتوح الجديدة على أساس كسب المال ، لا على أساس نشر الدين الإسلامى كما كان الغرض من الفتح أيام الخلفاء الراشدين . وتم فى عهده فتح : إقليم ما وراء النهر ، وحوض نهر السند ، وشمال إفريقية ، والأندلس . وقام بهذه الفتوح ثلاثة من القواد كان لهم فضل إتمامها وهم : قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم ، وموسى ابن نصير .

٧ — سليمان بن عبد الملك بن مروان

٩٦ — ٩٩ = ٩١٥ — ٩١٨ م

سياسته :

ارتقي سليمان عرش الخلافة بعد أخيه الوليد طبقاً للنظام الذى كان قد وضعه عبد الملك بن مروان لولاية العهد . على أن سليمان قد غلبت عليه العصبية القبلية : فقد كانت أمه يمنية مثل يزيد بن معاوية ولذلك كان سليمان متعصباً لأخواله من اليمنيين ، وكان ذلك التعصب القبلى من عوامل سقوط الدولة .

أراد الوليد أن يجعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز من بعده ، وقد شجعه على ذلك الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم ، ولكن الوليد مات قبل أن ينفذ رغبته ، فحقد سليمان عليه . وكان الحجاج قد توفى قبل الوليد ، أما محمد بن القاسم وقتيبة فقد حلّ بهما غضب سليمان ويقال إنه لما ارتقى سليمان عرش الخلافة ولّى يزيد بن أبى كبشة على السند وأمره بحبس محمد بن القاسم فحبسه فى بلدة واسط وانتهى أمره أخيراً بالقتل[1] . كذلك عزل سليمان ، قتيبة ابن مسلم ، وأساء معاملة موسى رغم كبر سنه وسوء صحته وفرض عليه مبلغاً كبيراً من المال وما لبث أن سجنه حتى مات ، كما أرسل إلى بلاد الأندلس من قتل ابنه عبد العزيز وعزل ابنه عبد الله عن شمال إفريقية ولكنه عفا عنه وسمح له بالتردد على مجلسه فظل على ذلك حتى مات فى حياة سليمان ، وهكذا بدأ سليمان خلافته بالانتقام من قواد أخيه . على أن سليمان رغم ذلك كان يقدر الناس حق قدرهم ،

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٠٣ .

فقد أبى أن يسلم طارق بن زياد إلى موسى بن نصير بعد أن عفا عنه ، كما أنه كان يجالس العلماء من أمثال ابن شهاب الزهيرى ، وقدّر عمر بن عبد العزيز حق قدره . وفى عهده ارتفع شأن أعداء الحجاج وخاصة أسرة المهلب ورئيسها يزيد ابن المهلب الذى ولاه سليمان على المشرق ، فسار إلى خراسان وغزا إقليمى طبرستان وجرجان .

مصار القسطنطينية :

استطاع سليمان فى مدة خلافته ، رغم قصرها ، أن ينفذ الحملة التى كان قد أعدها الوليد فى أواخر أيامه لفتح القسطنطينية ، فلم يتوان فى تجهيزها ومضى فى تنفيذ المشروع دون تردد ، وشجعه على ذلك أن القسطنطينية كانت فى حالة ضعف تام ، فأرسل سنة ٩٨ هـ قوة برية تبلغ ثمانين ألفاً إلى آسيا الصغرى تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، كما أمّر عمر بن هبيرة قائد الأسطول العربى على القوة البحرية وأمره بالإبحار إلى القسطنطينية ، ورابط سليمان نفسه بقوة حربية عند « دابق » بالقرب من حلب ليمد الحملة بما يلزمها وقت الحاجة .

اجتاح مسلمة بن عبد الملك آسيا الصغرى ووصل إلى بلدة « عمورية » وأخذ فى محاصرتها ، وكان يتولى الدفاع عنها ليو الأزورى البيزنطى الذى عرف بمطامعه السياسة فى عرش بيزنطة ، فحاول الاستعانة بالعرب للوصول للملك ، ومن ثم دخل فى مفاوضات مع مسلمة ، ولم يكن مسلمة بالقائد الفطن ، فقد صدق ماتعهد له به ليو بأنه إذا ساعده على ارتقاء عرش الدولة البيزنطية فإنه يؤدى جزية سنوية للدولة العربية ، ورفع الحصار عن عمورية وسار إلى بلدة أبيدوس على ساحل آسيا الصغرى الغربى ، وسار ليو فى الوقت نفسه إلى القسطنطينية وأوهم أهلها أنهم إن جعلوه ملكا عليهم تمكن من صد غارة العرب لأنه قد تمكن من خديعة القائد

العربى ، فلم يشك أهل القسطنطينية فى قوله وجلس على عرش بيزنطة .

كان مسلمة إذ ذاك يرابط بجيوشه أمام القسطنطينية منتظراً أن يبر ليو بوعده ويرسل إليه الأموال ، وكان الأسطول العربى قد دخل مضيق القسطنطينية ورابط فى البسفور . ولما لم يف ليو بوعده صمم مسلمة على مداومة الحصار وأمر رجاله بزرع الأراضى وادخار المؤن والذخائر ، ولكن ليو تمكن من أن يدخل الغفلة مرة أخرى على مسلمة قائد الجيش الإسلامى . فأوهمه أن الروم قد علموا أنه لن يحاربهم مادام الطعام وفيراً ، فلو أحرق الطعام فإنهم يظنون أنه سيبادر إلى الحرب فيقدمون إليه فروض الولاء والطاعة ، وهكذا أمر مسلمة بإحراق المؤن دون أن يدرك نتيجة هذا العمل ، فلما اشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر وهاجمها أسطول المسلمين ، استدرج ليو سفن المسلمين حتى فتكت بها النار الإغريقية ولم يبق معهم من المؤن والذخيرة مايساعدهم على مهاجمة المدينة الحصينة[1] .

وأقبل الشتاء على الجيش وقد نفدت أقواته بعد أن أحرقت ، واضطر الجند إلى أكل الدواب حتى جاءت الأخبار بوفاة سليمان فى صفر سنة ٩٩ هـ وتولية عمر بن عبد العزيز ، فعادت الحملة خائبة ، بعد أن أمرها الخليفة الجديد بالرجوع . وهكذا قدر لحملة سليمان على القسطنطينية الإخفاق .

ولا غرو فقد اشتهر سليمان بالضعف ، فقد نشر الفرقة والانقسام بين أفراد الدولة بعد أن شطرها إلى شطرين : يمنية ومضرية ، كما كان نهماً محباً للترف ، فلم يكن من المنتظر أن ينجح فى إنجاز مثل هذا المشروع الضخم .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص ٢٤٦ .

٨ – عمر بن عبد العزيز

٩٩ – ١٠١ هـ = ٧١٧ – ٧٢٠ م

بيعته :

لما مرض سليمان بن عبد الملك عزم على مبايعة بعض أبنائه ، فنهاه أحد خاصته وأشار عليه أن يختار رجلا صالحاً [١] ، فاستشاره فى عمر بن عبد العزيز فأثنى عليه ، فكتب سليمان عهده ، ودعا أهل بيته وقال لهم : « بايعت لمن عهدت إليه فى هذا الكتاب » ، ولم يعلمهم به فبايعوا ، ولما مات سليمان جمعهم ذلك الرجل الذى أشار بمبايعة عمر وكتم موت سليمان عنهم وقال لهم : « بايعوا مرة أخرى » فبايعوا ، ولما رأى أنه قد أحكم الأمر ، أعلمهم بموت سليمان فبايعوه ، ولم يتخلف عن بيعته إلا سعيد وهشام ابنا عبد الملك [٢] . وقيل إن سليمان بن عبد الملك خبره ، فوجد أنه لم يكن من بين الأمويين من يصلح لهذا الأمر غيره : لورعه ، وتمسكه بأهداب الدين ، وحفظ العهود والمواثيق .

سياسته :

كان البون شاسعاً بين عمر و بين غيره من خلفاء بنى أمية ، حتى اعتبر حكمه : غرة فى جبين ذلك القرن الذى امتلأ بالزيغ عن الدين وتلطخ بالاستبداد وسفك الدماء [٣] ، ويعد المسلمون خلافته كخلافة عمر بن الخطاب . ينتهى نسب عمر ابن عبد العزيز إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، أما أمه فهى بنت عاصم بن

---

(١) هو رجاء بن حيوة .

(٢) الفخرى ص ١١٧ .

(٣) Nicholson : Lit. History of the Arabs, p. 209.

عمر بن الخطاب ، فلا عجب إذا اشتهر كجده بالتقوى والورع والعدل ، ومع أنه نشأ فى مصر مع أبيه ، إلا أن أباه بعثه إلى المدينة فاتصل بشيوخها وتعمق فى الفقه و برع فى الحديث ، وولى الحجاز فى زمن عبد الملك بن مروان والوليد ، وتم على يده تجميل المسجد النبوى فى المدينة المنورة . وأبطل عمر سب على ابن أبى طالب على المنابر[1] ، وهى العادة التى كانت متبعة فى العصر الأموى ، وهذا حدا بالعلويين إلى الرضى عن خلافة عمر . وكان بلاطه مملوءاً بأهل الورع والتقوى ، حتى لم يكن للشعراء نصيب فى بلاطه .

اصلاحاته :

كان عصر عمر عصر سلم و إصلاح واستقرار ، بعيداً عن الفتن التى سادت الدولة الإسلامية منذ عهد عثمان ، فقد عزل الولاة الذين عرفوا بالظلم وولى مكانهم الأكفاء والصالحين وجعلهم مسؤولين أمامه وحدّ من سلطتهم . ثم بدأ فى نشر الدعوة الإسلامية على النحو الذى كانت عليه أيام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقد وصل عمر بالوسائل السلمية فى نشر تلك الدعوة إلى ماعجز عنه أسلافه عن طريق القوة : فقدم لأهالى البلاد التابعة للدولة العربية هبات من المال ليدخلوا فى الإسلام ، وأرسل إلى بلاد المغرب عشرة من الفقهاء ليعلموا أهل البلاد أصول الدين الإسلامى وتعاليمه ، كذلك أرسل كتابا إلى ليو الثالث ملك الروم يدعوه فيه إلى الدخول فى الإسلام ، وكتب إلى ملوك الهند والسند وما وراء النهر والبربر بإفريقية لإقناعهم باعتناق الديانة الإسلامية على ألا يدفعوا جزية ولا يمس استقلالهم فاستجاب له أكثر هؤلاء الملوك ، وقيل إن عامله على خراسان أدخل فى الإسلام نحواً من أربعة آلاف شخص .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

وحاول عمر إصلاح حالة البلاد المالية بأن أمر عماله بأن يرفعوا الجزية عن كل من أسلم ، ولما شكا إليه بعض الولاة كثرة دخول الناس فى الإسلام ونقص إيرادات بيت المال نقصاً محسوساً تبعاً لذلك واستأذنوه فى فرض الجزية على من يعتنق الإسلام ، قبّح رأيهم ، ورد على أيوب بن شرحبيل الأصبحى والى مصر بكلمته الخالدة : ضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابياً ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه .

واستقدم عمر الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية ، فقد بعث بأوامره إلى مسلمة بن عبد الملك ليرفع الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن ساءت حال المسلمين واستعصى عليهم فتح تلك المدينة .

حاول عمر إرضاء الشيعة والخوارج و إقناعهم بمناصرة الأمويين عن طريق الأدلة والحجج والبراهين ، ولم يحرك الخوارج ساكناً فى عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ، ولما ولى عمر بن عبد العزيز ولاية العهد ظهر « بسطام اليشكرى » من بنى يشكر وكان يعرف باسم شوذب ، ولم يرد عمر أن يأخذ هؤلاء الخوارج الذين التفوا حوله بالشدة والقسوة ، فأرسل إلى شوذب كتاباً يقول فيه : « بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست أولى بذلك منى ، فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، و إن كان بيدك نظرنا فى أمرنا » . فكتب شوذب إلى عمر : « قد اتفقت وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك و يناظرانك ولم يستطع أن يرد على اعتراضهما فى شأن ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك من بعده، فطلب إليهما أن يستمهلاه ثلاثة أيام ، ولكنه مات قبل مضى هذه المدة لأن بنى مروان دسوا له السم خوفا من أن يخلع يزيد وأن يضيع ما فى أيديهم من السلطان.

وفاته :

توفى عمر سنة ١٠١ هـ فى « دير سمعان » فى شمال الشام ، وسنه لا تزيد على تسع وثلاثين سنة ، بعد أن ولى الخلافة مدة سنتين وخمسة أشهر . وقد عدّه بعض المؤرخين من الخلفاء الراشدين وخاصة أنه رد المظالم التى ارتكبها بنو أمية ، لذلك نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبره لأعماله الجليلة التى قام بها فى سبيل رفع شأن الإسلام والدولة العربية .

ولكن للأسف لم يعمل بإصلاحات عمر بعد وفاته ، وسارت الأمور فى مجراها الأول من حيث تعصب القبائل العربية ، وازدياد أحوال الموالى سوءاً ، وانقسام الأسرة المالكة الأموية على نفسها .

٩ — يزيد بن عبد الملك

١٠١ — ١٠٥ هـ = ٧٢٠ — ٧٢٤ م

هو ابن الخليفة عبدالملك ، من زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وقد اعتلى عرش الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز ، طبقاً للنظام الذى وضعه سليمان ابن عبد الملك ، وفى عهده تعرضت الدولة الأموية لبعض الأخطار ، فنجّاها منها وهزم الخارجين عليها .

الفتن الداخلية والخارجية :

سار يزيد على سياسة أخيه الوليد ، فإنه بعد أن أعلن الخوارج العصيان وهزموا الأمويين فى عدة وقائع ، ولى الكوفة مسلمة بن عبد الملك وأرسل إلى الخوارج سعيد بن عمرو الحريش فى جيش كثيف ، فتمكن من هزيمتهم وتشتيت شملهم .

وقامت فى عهد يزيد فتنة جامحة قادها يزيد بن المهلب ، وهو الذى ولاه

سليمان على المشرق ، وافتتح طبرستان ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز طالبه بخمس الأموال التى جباها ، فعجز عن أدائها ، فسجنه فى جزيرة دهلك فى البحر الأبيض ثم نقل إلى حلب وظل فى السجن إلى أن مرض عمر مرض الموت ، ففر من محبسه معتزماً الثورة ، وذهب إلى البصرة وأسر واليها ، ثم واصل السير إلى الكوفة فانضم إليه خاصته كما انضم إليه الأزد ، وبذلك عظم أمره واشتدت سطوته . فبعث إليه الخليفة يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة وابن أخيه العباس ابن الوليد فى جيش عظيم ، فالتقى الجيشان واقتتلا قتالا شديداً ، وقتل يزيد ابن المهلب فى المعركة وتفرقت جموعه وفر إخوته إلى كرمان والسند ، ولكن يزيد بن عبد الملك تعقبهم ونكل بهم .

لم يقف الأمر فى عهد يزيد عند حد القضاء على الأخطار الداخلية ، بل أن الجيوش الإسلامية فى أسبانيا وجهت أنظارها من جديد إلى البلاد الواقعة شمال البرانس ، وتقدمت فى فرنسا بقيادة السمح بن مالك الذى ولى بلاد الأندلس (١٠٠ — ١٠٢ هـ) ، واخترقت جبال البرانس وزحف على مقاطعة بروفانس ثم أغارت على أكيتانيا وحاصرت تولوز . ولكن نهاية السمح كانت سيئة : لأن « بورد » دوق أكيتانيا قابله بجيش كبير وهزمه وقتله كما قتل معظم جيشه ، وعاد الباقون بقيادة عبد الرحمن الغافقى إلى مدينة ناربونه ، مما يدل على أن العرب وإن هزموا فى عهد يزيد بن عبد الملك فى فرنسا فإنهم لم يغادروها ، وظلت السلطة فى أيديهم فى الجزء الواقع منها شمال البرانس .

غير أن سوء أخلاق يزيد بن عبد الملك أضعفت هيبة الخلافة . فقد اشتهر باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء ، كما تجدد فى عهده الخلاف بين اليمنية والمضرية وأصبحت اليمنية من أعداء الدولة بعد أن كانت من أنصارها وصار العنصر المضرى حزب الأمويين ، وكذلك لم يأخذ بإصلاحات سلفه فقد نقض كل ما فعله عمر حين أمر بوضع الجزية عمن أسلم وجعل الخراج

على الأرض ، وفرض يزيد الجزية على من أسلم مما أدى فى النهاية إلى نتائج تعد على أعظم جانب من الخطورة .

وكانت وفاة يزيد فى شعبان سنة ١٠٥هـ . وهو فى الثامنة والستين من عمره .

١٠ — هشام بن عبد الملك

١٠٥ — ١٢٥ هـ = ٧٢٤ — ٧٤٣ م

هشام هو ابن عبد الملك من زوجته المخزومية ، تولى عرش الخلافة سنة ١٠٥ هـ ، ولم يقم فى دمشق كما فعل أسلافه من خلفاء بنى أمية وإنما أقام فى الرصافة الواقعة شمالى شرق الشام . قضى مدة خلافته فى بحث حالة الموالى وفى إيجاد توازن بين اليمنية والمضرية وفى العمل على توسيع نطاق الدولة باستئناف الفتوح .

سياسة إزاء القبائل :

لم يكن موقف هشام بالنسبة للقبائل العربية ثابتاً بل كان مضطربا ، فقد لحظ هشام من بادىء الأمر ارتفاع شأن القيسية وانخفاض المضرية نتيجة لما حدث فى عصر سلفه يزيد . فأحب هشام أن يوجد التوازن بين الفريقين ، وافتتح عصره بتولية عمال من القيسية واليمنية : فولى على العراق خالد ابن عبد الله القسرى من قبيلة « قسر » وهى قبيلة ضعيفة ، وفى سنة ٦٢٠هـ أخذت سياسة هشام تتغير بالنسبة للقبائل ، فتحول هشام عن اليمنية إلى المضرية وأصبحت الدولة تعول على الفريق الأخير ، فقد كان هشام محباً لجمع المال ، وكان عمال القيسية وهم من المضرية كالحجاج وزياد ، مهرة فى انتزاع الأموال على العكس من اليمنية ، كما أن هشاما تأثر بنسبه إذ كانت أمه قيسية .

التوسع والغزو :

امتاز عصر هشام بالتوسع فى الفتوح ، فقد أراد ولاة الأندلس أن يسيروا قدماً فى تنفيذ سياسة الفتوح فى فرنسا ، التى استؤنفت فى عهد يزيد بن عبد الملك وتوقفت على أثر مقتل السمح بن مالك . وقد غزا عنبسة بن سحيم الكلبى — الذى ولى على بلاد الأندلس فى أواخر عهد يزيد بن عبد الملك — بلاد الغال واستولى عليها ولكنه قتل أثناء عودته فاضطر العرب إلى التقهقر إلى ناربونة .

ولما ولى عبد الرحمن الغافقى حكم الأندلس وأصلح أحوالها وقوى الجيش ، خرج فى ثمانية آلاف مقاتل واستولى على أكيتانيا التى استعان دوقها بالفرنجة ، فقابله جيش يقوده شارل مارتل ، وحدثت بين العرب والفرنجة فى رمضان سنة ١٢٤ هـ واقعة تور أو بواتيه ، ودارت الموقعة ثمانية أيام وكاد النصر يتم للمسلمين ، ولكن فى اليوم التاسع دارت الدائرة عليهم ووجد العرب أنفسهم فى مركز حرج ، وانتهزوا فرصة الظلام وانسحبوا بعد أن أصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته . وكان لهذه الموقعة أثر كبير فى سياسة الأمويين إذ لم يحاولوا بعدها الاستيلاء على بلاد الفرنجة وبدأوا يتراجعون إلى بلاد الأندلس .

الفتن والثورات :

واضطر عبد الرحمن الغافقى إلى ترك أسبانيا والذهاب إلى شمالى إفريقية ، حيث قامت الثورات ضد الحكم الأموى ، لأن العرب لم يعاملوا البربر معاملة تحمل معنى المساواة معهم ، فقد أكرهوهم على دفع الجزية وصاروا بذلك فى مستوى أقل من العرب . وساعدت هجرة كثير من الخوارج إلى بلاد المغرب . إذ ذاك على إشعال نيران الثورات بها ، ولم يحاول هشام إصلاح حال البربر ، بل استخدم معهم أساليب القوة ، وسير جيشاً من جند الشام بقيادة

كلثوم بن عياض القشيرى ، ولـكنه هزم فى واقعة بقدورة شمالى إفريقية وعدت أعظم هزيمة لقيها العرب .

وفى أيام هشام ، خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، الذى تنتسب إليه طائفة الزيدية ومن كبار أهل البيت وكان يمنى نفسه بالخلافة ، وقد عرف هشام ذلك عنه . وأراد زيد الذهاب إلى المدينة ليتخذها مركزاً له وسار فعلا فى طريقه إليها ، ولـكن أهل الـكوفة تبعوه وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً وأغروه بالرجوع إليها فرجع ، وهناك أقبلت الشيعة عليه وانضموا إليه كما انضم إليه أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان والجزيرة ، وإذ ذاك أعلن زيد حقيقة مراميه ، والتقى بيوسف بن عمر الوالى الأموى ودارت بينهما معركة حامية ، أبلى فيها زيد بلاء حسناً وقاتل قتالا عنيفاً ولـكنه أصيب بسهم أرداه قتيلا[1] .

وثار فى عهد هشام على الدولة الأموية ، الحارث بن سريج التميمى ، وذلك لأن هشاماً فاجأ الموالى بضريبة خراجيـــة لا قبل لهم باحتمالها ، وكان الحارث يزعم أنه المهدى الذى بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين ، وقد استغل الحارث الـكراهية التى كان يضمرها الموالى للدولة الأموية ، فجمع حوله عدداً كبيراً منهم كما جمع عدداً من العرب الناقمين ، واستطاع أن يستولى على المدن الواقعة على شاطىء نهر سيحون ، ولـكن أسد ابن عبد الله القسرى الذى تولى خراسان فى عهد ولاية أخيه خالد على العراق استردها منه واضطره إلى الانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر سنة ١١٨ هـ ، وانضم الحارث بعد ذلك إلى الأتراك أعداء العرب ، ولـكنه لم يفز بطائل لأن نصر بن سيار ولى أمر خراسان سنة ١٢٠ هـ وكان من الولاة الأقوياء

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٣ — ٤٤ .

الموالين للعرش الأموى ، فاستطاع أن يوطد دعائم حكم الأمويين فى بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣ هـ[١] .

* * *

يعد هشام من مشهورى خلفاء بنى أمية ، بلغت مدة خلافته عشرين عاما ، اتصف خلالها بالدقة والإخلاص فى العمل . ولكن أحوال البلاد ظلت فى عهده تنتقل من سىء إلى أسوأ ، نتيجة ذلك السخط العام على السياسة الأموية فى المشرق ، وخاصة لإعادة فرض الجزية على المسلمين بعد أن كان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد ثبت إلغاءها ، وكان انقسامُ المسلمين إلى موال وعرب و إلى يمنية ومضرية داعياً إلى إيقاف حروب الفتح والتوسع .

وكانت وفاة هشام فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ ، فى الرصافة ، و بوفاته بدأ الضعف يدب إلى جسم الدولة الأموية .

١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثانى)

١٢٥ — ١٢٦ هـ = ٧٤٣ — ٧٤٤ م

لم يمتد حكم الوليد بن يزيد بن عبد الملك أكثر من سنة واحدة ، وفى عهده أسرعت الدولة ناحية الانحلال ، وكان أسوأ بنى أمية سيرة ، أدمن على شرب الخمر وعرف بالجور والظلم وهو لا يزال ولى عهد الدولة . ولما وصل إلى الخلافة ، بالغ فى إظهار سروره بموت هشام لأنه كان قد أراد منعه من ولاية العهد ، ونكل بأولاد هشام و بكل أموى فكر فى منعه من الوصول إلى الخلافة وسجنهم وعذبهم ، ولذلك انقسمت الأسرة المالكة على نفسها انقساما شنيعا ، وزاد هذا

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٦١ — ٦٣ .

الانقسام أن الوليد حاول أن يجعل الخلافة لابنيه الصغيرين مع وجود الراشدين من أسرته ، فتصدى له يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، مما زاد الأمر فسادا وأدى إلى سخط بنى أمية عليه .

وسلك الوليد مسلك هشام من حيث التعصب للقبائل ، وكان هشام قد ناصر القيسية المضرية على اليمنية . واتبع الوليد هذه السنة فمال إلى القيسية وعادى اليمنية ، فكان هذا خروجا على التقاليد المرعية ، إذ كان كل الخلفاء حتى سنة ١٢٠ هـ يعولون على اليمنية .

وقد قتل الوليد بقرية من قرى دمشق فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، بسبب قبح سيرته وسوء معاملته لأكابر أهل بيته ورجالات دولته ، فاجتمعوا وهجموا عليه ، فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف وقال : يوم كيوم عثمان ابن عفان[1] . ثم تقدم إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وقتله ، وكانت مدة خلافته سنة وشهرين وأياما .

١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك

جمادى الآخرة — ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ

جاء بعد الوليد ، يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ومكث فى الخلافة ستة أشهر ويختلف عن سابقه فى : أنه كان محبوبا لدى المتدينين فقد كان يزيد ورعا تقيا على عكس الوليد ، وأغضب الوليد اليمنية فى حين أن يزيد اكتسب ودهم بأن عزل ولاة القيسية وولى مكانهم اليمنية ، ومع ذلك فقد أخذ عليه بعض العامة ميله إلى القدرية أو المعتزلة التى عظم شأنها إذ ذاك وكان لها آراء فلسفية ولعل ميل الخليفة يزيد إلى القدرية يرجع إلى سعة ذهنه فى المسائل الفلسفية .

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢١ — ١٢٢ .

وكان تحزب يزيد لليمنية دون المضرية وميله إلى طائفة المعتزلة ، داعيا إلى كرهه . وقد مات فى ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ تاركا الخلافة لأخيه إبراهيم ولكن لم يعترف بسلطان إبراهيم ، ولذا لم يذكر اسمه بين الخلفاء الأمويين وإنما يذكر بعد يزيد هذا مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ولم يمكث إبراهيم ابن الوليد فى الخلافة أكثر من شهرين .

١٣ — مروان بن محمد

١٢٧ ـ ١٣٢ هـ = ٧٤٤ ـ ٧٤٩ م

لما بويع إبراهيم بن الوليد لم تأت بيعته بطائل ، ولم يلبث مروان بن محمد أن سار إليه وخلعه ، وهرب إبراهيم من دمشق فظفر به مروان وقتله وصلبه وقتل من مالأه ومن بينهم العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسرى ، وحينئذ اشتعلت نار العصبية بين المضرية واليمنية ، وتعصب مروان بن محمد للمضرية على اليمنية ، ولذلك انصرفت اليمنية عنه ومالوا إلى الدعوة العباسية[1] وبويع مروان فى دمشق فى شهر صفر سنة ١٢٧ هـ ، وهو آخر خلفاء بنى أمية .

وفى عهد مروان ، اشتدت الثورات التى قام بها اليمنية ضد الحكم الأموى فى كل أنحاء الشام وفى العراق ، إلا أن مروان بمهارته الحربية التى اشتهر بها وبإخلاص القيسية له استطاع أن يخمد تلك الثورات الواحدة بعد الأخرى .

وكانت الحالة فى العراق قد بلغت النهاية القصوى من الفساد ، ففيها تطاحنت الأحزاب السياسية كالخوارج والعلويين ، بل ظهر إذ ذاك الساخطون من بنى أمية ، ولكن بشكل غير منظم . وكانت أعظم الفتن فى العراق فتنة الخوارج فقد سار رئيسهم الضحاك بن قيس إلى الموصل ، وكان هذا الخارجى

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣ .

يسعى إلى الخلافة ، فسار الخليفة لقتاله ، وحدثت بينهما واقعة كبرى قتل فيها الضحاك . وتلا ثورة الخوارج ظهور العباسيين فى خراسان ، مما هزّ الدولة الأموية هزاً عنيفا وقرّب من نهايتها ، وقضى عليها بعد قليل .

سقوط الأمويين

على أن العامل الهام الذى أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعضعها بشكل جلى ، ما كان من تعصب الأمويين للعرب مما أدى إلى خروج الموالى على الدولة الأموية ، وهم غير العرب الذين دخلوا فى الإسلام عقب الفتح العربى فى فارس ومصر والمغرب ، وما لبث هؤلاء الموالى أن أصبحوا أعداء العرب لتفضيل العرب أنفسهم عليهم وتمتعهم بحقوق لم يتمتع بها الموالى[1] ، لذلك كان الموالى ينتهزون كل فرصة ليكيدوا للدولة الأموية وظهروا مع كل خارج على الأمويين ولم تكن حركاتهم منظمة ، ولكنها اشتدت فى أواخر العهد الأموى حين فسدت الأحوال بشكل واضح ، واستعرت الحروب بين الموالى والدولة الأموية ، مما كان له أكبر الأثر فى نجاح الدعوة العباسية حيث احتضن دعاة العباسيين قضية الموالى وأيدوهم ضد بنى أمية .

ولايقل عن ذلك أهمية ، ما كان من انصراف بعض خلفاء بنى أمية كيزيد ابن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى اللهو والمجون والخلاعة ، حتى ضعفت هيبة الخلافة لضعف أخلاقهم وسوء تصرفاتهم .

ومماقوض أركان الدولة وعجّل بزوالها ، ما كان من تولية العهد لأكثر من واحد

---

(١) من بين الحقوق التى حرم منها الموالى فى عهد الأمويين : أنهم لم يحصلوا على عطائهم الذى يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش كالعرب ، ولم يكن يسمح لهم بركوب الخيل أثناء القتال ، وقصر التحاقهم بالجيش على فرقة المشاة ، وحتم عليهم أن يكون لهم مسجد خاص يؤدون فيه الصلاة وجبانة خاصة يدفنون فيها موتاهم ، كما كان العربى لا يرضى أن يزوج ابنته من مولى .

مما أدى إلى جلب العداوة والخصام وإحداث القطيعة والانقسام بين أفراد البيت المالك الأموى ، وانتهى الأمر إلى تدهور الدولة وسقوطها ، وظهر ذلك بوضوح فى عهد خلافة مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ابن مروان .

وهزّ استقرار الدولة وهد كيانها ، ظهور روح العصبية بين القبائل ، ويتبين خطر هذا التنافس القبلى الذى ظهر بشدة فى الدولة الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز : من أن يزيد بن عبد الملك أخذ جانب المضرية حتى أصبح العنصر اليمنى ضعيفا ، بينما لم تكن لهشام بن عبد الملك سياسة ثابتة إزاء كل من المضرية واليمنية إذ أنه بعد أن انحاز إلى اليمنية ورجحت كفتهم تحول عنهم إلى المضرية وعين من بينهم ولاة ، ولما جاء الوليد بن يزيد بن عبد الملك تحيز للمضرية لأن أمه كانت مضرية مما أثار سخط اليمنية ودبروا المكائد لقتله وتم لهم ما أرادوا ، وانحاز يزيد بن الوليد إلى اليمنية لأنهم هم الذين ساعدوه على الوصول إلى الخلافة ، وأخذ اليمنيون ينتقمون من المضرية الذين ثاروا فى حمص وفلسطين والأردن ، ولكن الخليفة يزيد تمكن من التغلب عليهم ، وتعصب مروان ابن محمد للمضرية فثارت اليمنية ولكنه تمكن من إخماد ثوراتهم . وأصبح بذلك كل خليفة يعتمد على شيعة تؤيده للوصول إلى مآربه فى الخلافة .

وقد أعطت تلك القلاقل والاضطرابات الدعوة العباسية فرصة للظهور وتقوية دعائمها وتثبيت أركانها ، إذا شغل مروان بإخماد الفتن حتى باغته العباسيون وقتلوه ، وبمقتله قضى على الدولة الأموية .

* * *

وهكذا زالت الدولة الأموية بعد أن حكمت نحو تسعين عاما ، كان العنصر العربى خلالها هو عمادها ونصيرها وصاحب السلطان المطلق فى تصريف شئونها .

وفيها ظهر ولاة على جانب عظيم من الكفاية وقوة الشخصية كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وغيرهم . كما حكمها خلفاء أقوياء كمعاوية الأول وعبد الملك بن مروان وابنه الوليد وهم الذين أقاموا على دعائم متينة وأظهروا أبهة الملك وابتدعوا أنظمة للحكم لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وأعادوا عهد الفتح والغزو على نحو أعاد إلى الأذهان عهد عمر بن الخطاب ، لولا ظهور خلفاء ضعاف اتسموا بذميم الصفات وظهرت خلال عهودهم الفتن وشبت الثورات ، مما أدى فى النهاية إلى اضمحلال تلك الدولة ثم انهيارها وقيام الدولة العباسية على أنقاضها .

الباب الثالث

الدولة العباسية

العصر العباسى الأول — العصر العباسى الثانى

١٣٢ — ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ — ١٢٥٨ م

انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين

يمكن اعتبار عهد مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ) آخر خلفاء الأمويين، بدء سقوط الدولة الأموية وانهيارها والتمهيد لقيام الدولة العباسية. ففى ذلك العهد شبت الثورات ضد الحكم الأموى فى أنحاء الشام ودبت الفوضى فى العراق. وكانت أعظم الفتن فى العراق فتنة الخوارج بزعامة الضحاك بن قيس الذى سار لى الموصل، يسعى للوصول إلى الخلافة، ورغم أنه قتل، فإن الدولة الأموية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

ولم يكد مروان ينتهى من قتال الخوارج، حتى بلغه نبأ ظهور العباسيين فى خراسان التى تقع شرق بلاد فارس. وساعد هؤلاء على الظهور، فساد أحوال الشام والعراق، وانقسام القبائل اليمنية والمضرية على بعضها، وتفكك الأسرة المالكة الأموية وسوء علاقات أفرادها بعضهم مع بعض. وانتقلت الحالة من سىء إلى أسوأ، حين ولى أمور الدولة خلفاء من أصحاب السيرة السيئة، أدمنوا الشرب وحكموا البلاد بالعسف والجبروت. وتصدعت أركان الدولة، حين نزل

خلفاؤها إلى مستوى التعصب الحزبى والقَبَلى وعجزوا عن صد تيار الانقسام بين القبائل .

ولكن العامل الهام الذى أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعضعها فى عصر مروان بشكل جلى ، ما كان من انقسام المسلمين إلى عرب وموال وهم المسلمون من غير العرب . وعداء الموالى لتلك الدولة وقيامهم ضدها ، لحرمانهم من الحقوق التى تمتع بها العرب ، فأصبح الموالى بذلك فى مستوى منحط ، و بينما الحرب بين الموالى والأمويين على أشدها ، انتهز دعاة العباسيين ذلك الظرف ونصروا الموالى . وصارت الحركة التى قام بها العباسيون لنيل الخلافة ، ما هى إلا حركة الموالى ضد العرب ، لأن العباسيين اعتمدوا على الموالى باعتبارهم حزبا كبيراً ساخطاً على الحكم الأموى .

بدأت طلائع الدولة العباسية تظهر ، منذ أن بدأ أبو مسلم الخراسانى سنة ١٢٩ هـ — أى قبل سقوط الدولة الأموية بثلاث سنوات — ينشر الدعوة للعباسيين فى خراسان . وتداعت الدولة ، حين عقد فى الحجاز فى أواخر العصر الأموى مؤتمر ضم أقطاب آل هاشم من العلويين والعباسيين ، وتناقشوا فى الوسائل التى تؤدى إلى القضاء على الخلافة الأموية بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين على خلفائهم ونظروا فيمن يرشح للخلافة إذا نجحت مساعيهم . فوقع اختيارهم على أحد الحاضرين وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية . ولكن الخلافة لم تسند فيما بعد إلى هذا العلوى ، بل أسدت إلى رجل من العباسيين هو أبو العباس . ولم يعدل العلويون بعد وصول العباسيين إلى الخلافة عن المطالبة بدعواهم وظلوا يناضلون و يكافحون ابتغاء الوصول إليها فى غير طائل ، واضطهدهم العباسيون كما اضطهدهم الأمويون من قبل .

وكان ذلك التحول من الأمويين إلى العباسيين والقضاء على محاولات العلويين فى إقامة خلافة علوية ، راجعاً إلى جهود أبى مسلم الخراسانى ، الذى وجد فى الحالة السيئة التى كانت فى خراسان ، فرصة سانحة ، فأذكى

فيران الفتن ضد الأمويين ، وكللت جهوده فى هذا السبيل بالنجاح بمساعدة الموالى الذين تدفقوا من كل جانب على خراسان وانضموا إلى دعاة العباسيين والتف حول أبى مسلم مائة ألف من الموالى . وتمكن من بذر بذور الشقاق بين أنصار بنى أمية النازلين فى خراسان ، واستطاع أن يرابط عدة أشهر بظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان ، وأن يستميل اليمنية أعداء الأمويين فى ذلك الإقليم ، وتمكن من الاستيلاء على مرو . وتخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة وقتلهم عن آخرهم ، وذاع صيت أبى مسلم ، وبعث نصر بن سيار الوالى الأموى فى خراسان عدة رسائل متتابعة إلى مروان ابن محمد آخر خلفاء الأمويين مستغيثاً ، فلم تأته نجدة ، وأخيراً هزم نصر وفر ثم مات عند مرو .

وكانت الدعوة إلى انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين سرية فى بادىء الأمر ، ثم انتقلت إلى خراسان . وكونت فيها جمعية سرية ، قوامها إثنا عشر رجلا كان يطلق عليهم إسم النقباء ، وعدد أعضائها سبعون داعياً انتشر معظمهم فى زى التجار . وظلت الدعوة سرية ، حتى وقع فى يد مروان بن محمد ، خطاب مرسل من إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس إلى أبى مسلم الخراسانى يأمره فيه بتشديد الوطأة على من يتكلم العربية فى خراسان ، لأن وجود العرب فى خراسان فى نظره سواء كانوا يمنية أو مضرية من شأنه أن يؤدى إلى فشل الدعوة العباسية ، ونصحه بالتنكيل بكل من يتهمه بالعمل ضد الدعوة العباسية ، وزج بإبراهيم الإمام فى سجن حران شمال الشام ، وقتل مسموماً فى النهاية .

وتولى الدعوة للعباسيين من بعده أبو سلمة الخلال ، واتخذ الكوفة الكوفة مركزاً لدعوته لأنها بلد شيعية ، وسار أبو العباس (السفاح فيما بعد) إلى الكوفة ومعه كبار بنى هاشم من ولد العباس ، ومن بينهم أخوه أبو جعفر

(المنصور) وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، ومن كبار بنى هاشم أيضًا عبد الله بن على العباسى عم السفاح والمنصور . و بعد سنتين هزم ابن هبيرة القائد الأموى بظاهر الكوفة وأرغم على السير إلى واسط التى تقع بين مدينتى الكوفة والبصرة جنو بى العراق ، ونزل أبو سلمة فى أوائل سنة ١٣٢ هـ بالكوفة ، وكان أبو العباس وأخوه أبو جعفر مختفيين . فى هذه المدينة قبل ذلك بزمن يسير ، وقد هربا إليها بعد مقتل إبراهيم الإمام ، واهتم أبو سلمة بأمرهما ، وأبقاهما عدة أسابيع ، دون أن يكشف أمرهما ودون أن يبايع أحدهما بالخلافة ، مما أوجد الريبة فى نفوس العباسيين ، وجعلهم يظنون أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى رجل من العلويين ، ولكن أشياع العباسيين أخرجوهما من مخبئهما و بايعوا أبا العباس ، وفى أواخر سنة ١٣٢ هـ رفع العلم الأسود على حصون دمشق ، وكان ارتفاعه يعنى سقوط الدولة الأموية وزوالها نهائيًا .

وانتقلت جيوش العباسيين عقب ذلك من خراسان إلى العراق ، وتمكنت من أن تأخذ مدنها الكبرى مدينة تلو مدينة ، ووجد مروان نفسه بجيوشه على نهر الزاب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ ، وكان جيشه منقسما على نفسه فى حين كان الموالى أعداؤه متحدين ، فدارت الدائرة على مروان . وقد عهد أبو العباس إلى عمه عبد الله بن على بمقاتلة الخليفة الأموى مروان بن محمد ، فتبعه عبد الله حتى أوصله إلى نهر الزاب الصغير ، وسار مروان منهزما إلى الموصل وعبر الفرات . فاضطره عبد الله إلى الهرب إلى فلسطين والأردن ، ثم فر إلى مصر حيث تعقبته جنود العباسيين وقضت عليه فى بلدة بوصير من أعمال الفيوم وأرسل رأسه إلى السفاح فى الكوفة[1] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

بذلك انتهى حكم الأمويين وقامت على أنقاضهم دولة العباسيين التى حكمت العالم الإسلامى زهاء خمسة قرون . وكان خلفاؤهم من السفاح إلى الواثق رجالا عظماء ، ماعدا الأمين فإنه لسوء حظه لم يساير هؤلاء فى عظمتهم ومقدرتهم السياسية ، واعتبر العصر العباسى الأول وحدة منسجمة متناسقة ، إذ لم يكن لكل خليفة سياسة شخصية ، بل سار الجميع على سياسة واحدة ، وكانت الحوادث الكبرى التى وقعت فى ذلك العصر تسير كلها فى تيارات عامة كإسقاط العرب وإيثار الفرس عليهم ، ثم تشجيع الترك على الفرس والعرب معاً ، ونهضة العلم والأدب ، وظهور حرية الفكر فى البحث والجدل والمناظرة ، وتقريب العلماء والأدباء والمغنين ، وترقية الفنون الجميلة كالعمارة والشعر والموسيقى . وهو على الجملة يعد العصر الذهبى للإسلام .

بدء ونهاية حكم العباسيين الأول :

	اسم الخليفة	بدء الحكم ونهايته	
١ —	السفاح	١٣٢ — ١٣٦ هـ	= ٧٥٠ — ٧٥٤ م
٢ —	المنصور	١٣٦ — ١٥٨ هـ	= ٧٥٤ — ٧٧٥ م
٣ —	المهدى	١٥٨ — ١٦٩ هـ	= ٧٧٥ — ٧٨٥ م
٤ —	الهادى	١٦٩ — ١٧٠ هـ	= ٧٨٥ — ٧٨٦ م
٥ —	الرشيد	١٧٠ — ١٩٣ هـ	= ٧٨٦ — ٨٠٩ م
٦ —	الأمين	١٩٣ — ١٩٨ هـ	= ٨٠٩ — ٨١٣ م
٧ —	المأمون	١٩٨ — ٢١٨ هـ	= ٨١٣ — ٨٣٣ م
٨ —	المعتصم	٢١٨ — ٢٢٧ هـ	= ٨٣٣ — ٨٤٢ م
٩ —	الواثق	٢٢٧ — ٢٣٢ هـ	= ٨٤٢ — ٨٤٧ م

١ — أبو العباس السفاح

١٣٢ — ١٣٦ هـ = ٧٥٠ — ٧٥٥ م

ماذا يقصد بلفظ « السفاح » ؟

اعتلى أبو العباس أول الخلفاء العباسيين عرش الخلافة فى ٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، وخطب فى صبيحة اليوم التالى لخلافته خطبة أشاد فيها بفضل آل محمد ، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ولما اقترفوه من آثام وذنوب ، وأطنب فى مدح أهل الكوفة وزاد فى أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس[1] . وختم خطبته بقوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح » .

قال السفاح : « ... زعمت السبئية الضلال ، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهدت وجوههم . بِمَ ولِمَ أيها الناس ؟ وبنا هدَى الله الناس بعد ضلالتهم . . . حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم . فتح الله ذلك منةً ومنحةً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فعدلوا فيها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها ، وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه (أغضبوه) ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، وردّ علينا حقنا . . . وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . . . يا أهل الكوفة ! أنتم محل محبتنا . أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ،

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٣٦ .

فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح[١] .

وعقب هذه العبارة البليغة التى ختم بها أبو العباس أول خطبة له فى مسجد الكوفة ، شاع لقب « السفاح » عن أبى العباس ، ويظهر أنه قصد من هذا اللفظ إشعار الحاضرين بأنه عوّل على سفك دماء كل من تحدثه نفسه بالخروج عليه والوقوف فى سبيله وسبيل دولته ، وأن يتوعد أيضاً الأمويين بالتنكيل بهم وإزهاق أرواحهم ، ولكن مما يسترعى النظر أن لفظ السفاح كان يطلق فى الجاهلية على بعض شيوخ القبائل[٢] .

أما لفظ « المبيح » الذى ورد كذلك فى ختام هذه الخطبة ، فقد يعنى الرجل الكثير العطايا ، وقصده من إثباته أن يبشر فى الوقت نفسه من يقوم بنصرته بإغداق الأموال عليه . وهذا يدلنا على أنه لم يكن سفاحا فى كل أدوار حياته ، فقد اتصف بالكرم والحلم والعقل والوقار والحياء وطيبة الخلق[٣] ، ولكن اعتلاءه عرش الدولة العباسية فى بدء قيامها ، والأعداء يتربصون بها من كل جانب ، أوحى إليه أن ينتهج فى إدارة الدولة خطة العنف والتهديد وأن يتبع سياسة الوعد والوعيد .

اتخاذ الأنبار عاصمة :

كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية وظلت مقراً للخلفاء حتى اعتلى السفاح العرش ، فاتخذ الأنبار عاصمة لدولته . وهى تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات فى الشمال الشرقى للعراق ، على مسيرة ثمانية وستين كيلو متراً من بغداد . وقيل إن سابور الثانى من ملوك آل ساسان فى فارس هو الذى

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 253.

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣١٥ .

اختطها . وأطلق العرب عليها « الأنبار » وهى كلمة فارسية تعنى السوق أو مخزن الغلال ، وأضحت هذه المدينة مقراً للخلافة العباسية مدة قصيرة من الزمن (١٣٢ — ١٤٥ هـ) .

واستقر المنصور الخليفة العباسى الثانى ، فى الأنبار ، إلى أن أسس مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) . ومنذ ذلك الحين ، أخذت المدينة تقل أهميتها شيئاً فشيئاً ، وفى سنة ١٣٥ هـ (٩٢٧ م) . استولى أبو طاهر زعيم القرامطة على الأنبار وخربها ، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس .

اضطهاد الأمويين :

كانت مهمة أبى العباس ، باعتباره أول خلفاء الدولة العباسية ، مهمة شاقة إذ كان عليه أن يثبت أقدام العباسيين فى الخلافة ويوطد أركانهم ليكون الأمر خالصاً لهم ، ومن ثم سار على سياسة الثأر والأنتقام من الأعداء فى غير هوادة ، فقد عمل على القضاء نهائياً بنى أمية ، ووقعت تبعاً لذلك مذابح عديدة ذهب ضحيتها كثير الأمويين ، حتى أضطر الكثير منهم إلى التنكر والهرب . وتغلب أبو العباس حياتهم بالمكر والخديعة ، إذ أعلن صفحه العام عنهم وأمنهم على حياتهم ، فانخدع الأمويون وظهروا من مكامنهم وإذ ذاك انقض عليهم وقتلهم شر قتلة .

اشتدت حوادث التقتيل والتشريد فى مكة والمدينة ، وفى الكوفة ، وفى فلسطين . وأغرى الشعراء ورجال البلاط الخليفة باستعمال الشدة والقسوة وأن يكون رائده عدم الثقة بالأمويين ، قيل : « إن السفاح كان جالساً يوما فى مجلس الخلافة ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر ، وقال :

لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا[١]

ودخل شاعر آخر على أبى العباس ، وعنده نحو السبعين رجلا من بنى أمية ، وقد قدم لهم الطعام ، فأنشده قصيدة جاء فيها :

وأذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس[٢]

والقتيل الذى بحران أضحى[٣] ثاويا بين غربة وتناسى

وقد أعاد إنشاد هذين البيتين ذكرى الماضى ، وما جره الأمويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت : فأمر أبو العباس بسليمان بن هشام فقتل ، ثم أمر بمن كان فى داره من بنى أمية فضربوا بالسياط ، وتتبع أبو العباس البقية الباقية من الأمويين وأنصارهم ولم يبق على أحد .

ولم يكتف أبو العباس بالقضاء على الأحياء من بنى أمية ، بل عمد بعد ذلك إلى الأموات منهم ، فأمر بالتمثيل بجثثهم وإحراقها : فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان ، وقبر ابنه يزيد ، وقبر عبد الملك بن مروان ، كما ضربت جثة هشام ابن عبد الملك بالسياط وذرى فى الهواء ، إلا أن السفاح أمر ألا تمس جثة عمر ابن عبد العزيز بسوء اعترافاً منه بفضله وجليل صفاته .

ولما تم لأبى العباس قتل رجال بنى أمية ومصادرة أموالهم ، اطمأن على دولته من ناحيتهم ، وقال :

بنى أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لى منكم بالأول الماضى ؟

يطيب النفس أن النار تجمعكم عوضتموا من لظاها شر معتاض[٤]

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤ .

(٢) ماء بجبل أحد ، قتل عند حمزة ابن عبد المطلب عم الرسول ودفن .

(٣) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس .

(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤ .

عدم احترام العهود والغدر بالأنصار :

لم يكتف السفاح بالقضاء على أعدائه الأمويين ، الذين يصح أن يلتمس له العذر فيما فعل معهم ، بل إنه لم يرع فضل الذين ساعدوه فى إقامة الدولة العباسية ، فغدر بهم ، ولم يحترم العهود والمواثيق التى كان يعطيها لأعدائه ولأنصاره على السواء .

قضى السفاح معظم عهده فى محاربة قواد العرب الذين ناصروا بنى أمية ، ووقف لهم بالمرصاد : فإن ابن هبيرة قائد جيوش مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، كان مقيما فى بلدة واسط ، وأرسل إليه أبو سلمة الخلال وزير السفاح الجيوش لمحاربته ، وحاصرته فى تلك البلدة ، وطال أمد الحصار ، فأرسل السفاح أخاه أبا جعفر الذى تولى الخلافة فيما بعد باسم المنصور ، فحاصر ابن هبيرة أحد عشر شهراً ، وحين باع ابن هبيرة خبر مقتل الخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد . فاوض أبا جعفر فى الصلح ، على أساس أن يسلم و يعطى له الأمان على حياته ، وانتهى الأمر بأن أعطاه السفاح الأمان ، وتسلم ابن هبيرة كتابا بذلك يحمل إمضاء الخليفة ، ولكن لم تمض على ذلك بضعة أيام حتى قتل ابن هبيرة ، وكان هذا واحداً من حوادث الغدر فى الدولة العباسية ، وتتابعت أمثال هذه الحوادث حتى أصبحت أمراً مألوفا .

وقتل السفاح وزيره أبا سلمة الخلال ، الذى كان من أهم العوامل التى ساعدت فى تأسيس الدولة العباسية . كان أبو سلمة من أهل اليسار فى الكوفة واشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية . على أنه لما خبر أحوال بنى العباس ، عزم على العدول عنهم إلى أولاد على بن أبى طالب ، ولما بويع السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه لمكانته من الساسانيين وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ولقبه وزير آل محمد ، إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، إذ خاف على نفسه إن هو قتله أن يقوم أهل خراسان

بالثأر له ، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبى مسلم ، وكتب له مع أخيه أبى جعفر كتابا يخبره فيه أن أبا سلمة الخلال يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين وعهد له بمعاقبته ، وأسلوب الكتاب ينم عن رغبته فى قتله . فأرسل إليه أبو مسلم رجالا من أهل خراسان ، فقتلوه ، وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذى كان يكرهه و يحقد عليه مقامه .

و بذلك هيأ أبو مسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عول السفاح على التخلص من أبى مسلم كذلك ، إذ كان شجى فى حلق دولته ، إلا أن المنية وافت السفاح قبل أن يحقق مااعتزمه من قتله .

ووضع السفاح بذلك قاعدة الغدر بالأنصار وعدم احترام العهود والمواثيق ، وسار على هذه القاعدة من جاء بعده من الخلفاء العباسيين .

الثورات ضد حكم السفاح :

هذه المعاملة القاسية للأمويين ، لم تؤد إلى صرف العرب عن العباسيين فحسب ، بل جعلت نفوس من العرب تضطرم بالكراهية والبغضاء لبنى العباس وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم ولمالأة العباسيين لهم واعتمادهم عليهم ، وزاد الطين بلة والحالة سوءاً ، غدر السفاح بأنصاره ، لذلك قامت الثورات فى كل مكان . وكان أشدها خطراً ، الثورة التى اندلع لهيبها فى بلاد الشام بقيادة أبى الورد وهو رجل من العرب ، وتزعمها من بعده أبو محمد السفيانى . ولكن سرعان ماغلب على أمره وقتل ، وقامت ثورة فى الجزيرة ، اشتد خطرها حتى أرسل السفاح أخاه أبا جعفر وعمه عبد الله بن على للقضاء عليها ، فتمكنا من إخمادها ، وظل أبو جعفر بعد أن انتهت مهمته والياً على الجزيرة حتى تولى الخلافة بعد أخيه السفاح ، وقامت كذلك ثورات فى عمان وفى السند وفى خراسان ، وكلها تأخذ على العباسيين كثرة سفكهم للدماء و إزهاقهم الأرواح ، ولكن قضى على تلك الثورات ، كما قضى على سابقتها ، ولولا شدة السفاح فى قمع أعدائه لزالت الدولة العباسية وهى لاتزال فى مهدها .

تقدير السفاح :

حكم السفاح أربع سنوات وتسعة أشهر ، أمضاها فى القضاء على بقايا الدولة البائدة دولة الأمويين ، ولم يجد طوال هـذه الفترة -وقتاً ينصرف فيه إلى النظر فى ترتيب شئون الدولة . إلا أننا نلاحظ أن السفاح ابتدع أموراً جديدة على نظام الحـكم فى العصر العباسى لم يكن لها وجود فى العصر الأموى ، فقد ظهر نظام الوزارة لأول مرة منـــذ ظهور الإسلام وأول من تولاها هو أبو سلمة الخلال وزير السفاح ، وأصبح النـاس يخطبون وهم وقوف بعد أن كانوا يخطبون وهم قعود . وانتقل مقر الملك من دمشق حاضرة الأمويين إلى الأنبار عاصمة الدولة الجديدة ، فانتقل بذلك مقر الدولة من الشـام إلى العراق .

اختلف المؤرخون فى تحليل شخصية أبى العباس : فوصفه بعضهم بالقسوة والميل إلى إزهاق أرواح الناس وخاصة أنه قتل عـدداً كبيراً من بنى أمية ، ولعل تلقيبه نفسه بالسفاح هو الذى حدا بهذا الفريق إلى وصفه بتلك الصفات . على أننـا نستطيع أن نقول إن الظروف هى التى أملت عليه تلك السياسة توطيداً لأركان الدولة العباسية الناشئة ، خاصة وأن مؤرخين آخرين وصفوا السفاح أنه كان شاباً يميل إلى الأدب والشعر وسماع الغناء . وكان يظهر لندمائه و يجلس معهم فى مجلس واحد و يجزل لهم العطاء[(١)] .

وقد توفى السفاح فى سنة ١٣٦ هـ . ودفن فى مدينة الأنبار .

---

(١) جاء فى مجلة الثقافة أنه لا يستبعد أن « يكون شاب جميل عفيف وفى كريم طروب كأبى العباس سفاكا للدماء » . العدد ٥١ ، السنة الأولى .